

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنعام

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (١)

﴿الْحَمْدُ﴾ هو الوصف بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل، ﴿لِلَّهِ﴾ أي: ثابت لله تعالى، فليعلم الجميع بذلك؛ ليحمدوه، ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: أوجدهما من العدم، وخصهما سبحانه بالذكر من بين الكائنات؛ لأنهما أعظم المخلوقات للناظرين، وقدم السماوات؛ لشرفها؛ ولأنها متعبد الملائكة، ولم يقع فيها معصية، ولتقدم وجودها.

﴿وَجَعَلَ﴾ أي: خلق ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ وهي كثيرة كظلمة الجهل، وظلمة الكفر، وخلق كذلك ﴿النُّورَ﴾ وهو واحد؛ لأن الحق واحد، مهما تعددت صور الباطل.

والله بهذا الوصف: يستحق أن يُحمد، وأن يُعبد، فهل كان الأمر من الخلق كذلك؟ كلاً، حمد وعبد البعض: وهم الذين آمنوا.

﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مع قيام هذه الأدلة، على وحدانية الله، وعلى قدرته ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ أي: عن حمد ربهم وعبادته والإيمان به ﴿يَعْدِلُونَ﴾ أي: يسوون به غيره، ويشركون معه غيره، والذين كفروا يفعلون ذلك مع أنه سبحانه:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ (٢)
أي: ﴿هُوَ﴾ الله ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ بخلق أبيكم آدم منه، ﴿ثُمَّ قَضَىٰ﴾ أي: كتب وقدر ﴿أَجَلًا﴾ أي: موعداً لكم، تموتون عند انتهائه، وهناك - كذلك - ﴿أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ آخر محدد ومقدر ﴿عِنْدَهُ﴾ لبعثكم، لا علم لكم به، ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ﴾

أيها الكفار، بعد هذا الخلق، الذي أنتم ثمرته، وبعد هذا الأجل، الذي ترون غيركم يموت عنده، كما تنتظرونه أنتم، ﴿تَمْتَرُونَ﴾ أي: تشكون، وتكذبون بالبعث، خاصة: بعد علمكم بأنه ﴿بِئْسَ خَلْقُكُمْ ابْتِدَاءً، وَمَنْ قَدَرٌ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ - وهذا أمر بديهي - كان على الإعادة أقدر. والذين كفروا يكذبون بالبعث:

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ (٣) أي: ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ المعروف بالالوهية، والمستحق للعبادة وحده ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾، وهو الله الذي ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ ما تسرون به، وما تجهرون به، بينكم وبين أنفسكم، أو بينكم وبين بعضكم البعض، ﴿وَيَعْلَمُ﴾ كذلك ﴿مَا تَكْسِبُونَ﴾ من خير فيثيب عليه خيراً، ومن شر فيجزى عليه شراً. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ [الزلزلة ٧، ٨].

وفوق كل هذا بالنسبة للذين كفروا!!!

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (٤) والمعنى: أنه بعد كفرهم بآيات الله، وإعراضهم عنها كلية، كما أنهم كانوا يشكون ومع ذلك: كانت الآيات تستمر في العرض عليهم، رغبة في إيمانهم. ولكنهم كانوا دائماً معرضين عنها، لا يأبهون لها، ولا يلتفتون إليها، استكباراً وعناداً. ولكن لماذا هذا الموقف منهم؟

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَتُهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٥) والمعنى: لأنهم كذبوا، وأعظم شيء كذبوه، وكذبوا به هو: الحق، أي: القرآن ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ وتحداهم، وعجزوا، على كل حال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَتُهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: فسيعلمون أخبار القرآن، وأنباء ظهوره، وعلوه، وانتشار مبادئه، كما سيعلمون يوم القيامة، حينما يأتيهم العذاب، قيمة ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. وهذا: تهديد لهم وتخويف، ودعوة للتفكير في حالهم، وضرورة مراجعة موقفهم من القرآن.

وإذا كانت الدعوة في الآية الفاتحة بالتهديد والوعظ والتخويف، فهناك دعوة كذلك، وتهديد بضرب المثل، فلنقرأ قوله تعالى:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ ﴿٦﴾

والمعنى: فليؤمنوا، وإلا أهلكناهم بانقضاء آجالهم، وأنشأنا من بعدهم قوماً آخرين يؤمنون، ولا يضرنا ذلك شيئاً، بل إذا لم يؤمنوا هم الخاسرون.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ في أسفارهم لتجاراتهم ﴿كَمْ﴾ أي: كثيراً ممن ﴿أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السابقة، كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب، عن طريق المعاناة، ورؤية الآثار، أو عن طريق سماع الأخبار، كقوم فرعون وغيرهم، ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ أي: مدة انقضاء أهل كل عصر، هؤلاء الذين رأيت آثارهم، أو سمعتم أخبارهم: كنا قد ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ قوة وسعة، وبسطة، وأعطيناهم ﴿مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ أي: ما لم نعظكم ونمكّن لكم به في الأرض، ﴿و﴾ كذلك ﴿أَرْسَلْنَا السَّمَاءَ﴾ أي: المطر ﴿عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ كثيراً متتابعاً، منه يشربون، وبه يزرعون.

﴿و﴾ كذلك ﴿جَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ أي: من تحت أشجارهم، ومساكنهم، يعني: عاشوا في الخصب بين الأنهار والأشجار والثمار، ومع ذلك لم يؤمنوا! ماذا حدث لهم؟

﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أي: أهلكنا أهل كل قرن من تلك القرون، وذلك. ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بسبب ذنوبهم، ولم تُغْنِ عنهم كثرتهم، ولا ما هم فيه من قوة وشراء.

وأنتم كذلك: يا أهل مكة، بل يا كل الكفار إن لم تؤمنوا، وتكفوا عن العناد: سنهلككم كما أهلكناهم، وأيضاً: سنأتي من بعدكم بقوم آخرين، كما ﴿أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: الذين كفروا ﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾ يؤمنون، فيسعدون.

ولكن يبدو أنه لا أمل في إيمان المعاندين من أهل مكة، ولا المعاندين من الكفار في كل عصر، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِيْنَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٧﴾

والمعنى: ولأن طبيعتهم - أي: المعاندين لله ولرسوله - جاحدة فهم لا يؤمنون، حتى ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ أي: كلاماً مكتوباً في ورق، كما اقترحوا، مما يشير إليه قوله تعالى على ألسنتهم ﴿وَلَنْ تُؤْمِنَ لِرِيقِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٣].

﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ بعد نزوله - واللمس باليد: أقوى دلائل التأكد والتثبت - وهذا يقتضي: اليقين بصحة نزول القرآن من عند الله، وضرورة الإيمان برسالة محمد ﷺ.

فهل - بعد ذلك - يؤمنون؟ لا بل: ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لشدة عنادهم وجحودهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: سحر واضح، سحرنا به محمد، وما هو بنبي. وليس هذا فقط، بل زادوا في عنادهم:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ (٨)

والمعنى: لو نزلنا عليك كتاباً مكتوباً في ورق، ولمسوه بأيديهم وعاندوا، وقال الذين كفروا منهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧]؛ ل زادوا في عنادهم، واقترحوا أشياء أخرى، تمييزاً له ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ أي: الذين كفروا منهم، ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي: هلاً أنزل عليه ملك، بمعنى: يا ليت أنه أنزل عليه ملك، ولا جواب لـ ﴿لَوْلَا﴾ هذه منهم، ولكن الجواب عليهم من الله تعالى بما يكشف استمرار عنادهم. حيث يقول أولاً: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ كما اقترحوا وطلبوا، فلم يؤمنوا: ﴿لَّقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ بهلاكهم ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أي: لا يمهلون لتوبة، أو معذرة، كعادة الله فيمن قبلهم، من إهلاكهم عند تنفيذ مقترحهم إذا لم يؤمنوا.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلِيسُوتُ﴾ (٩)

يعني: ولو استجبنا لهم، وأنزلنا ملكاً كما طلبوا ﴿لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ أي: لجعلنا الملك الذي طلبوه على صورة الرجل؛ ليتمكنوا من رؤيته، حيث لا قوة للبشر على رؤية الملك، ﴿و﴾ لو أنزلناه، وجعلناه رجلاً؛ ليتمكنوا من رؤيته: ﴿لَلَبَسْنَا عَلَيْهِم﴾ أي: لخلطنا عليهم، وزدناهم ضلالاً على ضلالهم، وذلك بسبب ﴿مَّا يَلِيسُوتُ﴾ على أنفسهم، بأن يقولوا ما هذا إلا بشر مثلكم، وليس ملكاً كما طلبنا، مع أنه ملك.

ثم يتوجه الخطاب والكلام إلى الحبيب ﷺ، فيقول له ربه، مثبتاً، ومطمئناً:

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٠)

والمعنى: لا تحزن يا محمد من موقفهم هذا، وعنادهم، واستهزائهم، فلست وحدك في ذلك، ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ﴾ من إخوانك، الذين أرسلوا ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ ولم يفلتوا من عقاب الله، ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾ أي: فنزل وحق بهؤلاء الساخرين المعاندين المكذبين، جزاء استهزائهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ﴾ من الرسل ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾. فكيف بمن يستهزئ بك، أو بما جئت به؟ !!
خوفهم يا محمد بمصائر من سبقهم من المكذبين:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (١١)
أي: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ علاجاً لتكذيبكم ﴿ثُمَّ أَنْظِرُوا﴾ واعتبروا ﴿كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ للرسول من قبلكم، حتى لا تكذبوا مثلهم. ثم قل لهم أيضاً:

﴿قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلّٰهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢)
والمعنى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، دعوة لهم، متسائلاً: ﴿لِّمَن مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾؟ وأجب فوراً: حيث لا خلاف حول هذه القضية و ﴿قُلْ لِلّٰهِ﴾ حتى وإن لم يقولوا ذلك.

ثم قل: ﴿كَتَبَ﴾ ربكم ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي: قضى فضلاً وعطفاً، ودون إلزام، وفي ذلك: تلطف وترغيب في دعوتهم للإيمان.

وبعد الترغيب: يكون التهيب، في قوله: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيٰمَةِ﴾ ليجازيكم بأعمالكم، وعنادكم، إن بقيتم على الكفر، ويوم القيامة هذا ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فهو آتٍ لا محالة، وعقابكم - إن بقيتم على الكفر - حاصل حاصل.

على كل حال ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بتعريضها للعذاب والمهانة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بيوم القيامة، فلا تبتس يا محمد من أجل هؤلاء المعاندين.

ويقرّر المولى سبحانه ملكيته للكون، وسمعه، وعلمه، بقوله جل جلاله:

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٣)

والمعنى: ﴿و﴾ قل يا محمد ﴿لَهُ﴾ أي: الله ﴿وَعَلَيْكَ﴾ ﴿مَا سَكَنَ﴾ أي: ثبت واستقر في اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴿يعنى: كل شيء في الوجود ملك له سبحانه.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقال في هذا الوجود كله ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يفعل فيه.

وما دام الأمر كذلك: فإن الله ﴿وَعَلَيْكَ﴾ يأمر حبيبه ﷺ أن يعلنها صريحة مدوِّية في قوله الكريم له:

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٤)

والمعنى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم، وللدنيا كلها، وهو أمر لكل مسلم - كذلك - أن يقولها واضحة قوية، لكل من يحاولون صرف المسلم عن دينه:

﴿أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا﴾ أعبد، وأقصده في كل شيء سوى الله سبحانه وتعالى؟ هل يعقل هذا؟ خاصة: وهو ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقهما ومبدعهما ومخترعهما على غير مثال سبق، ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ يرزق الدنيا كلها وأهلها، فهو الخالق الرازق، والمنافع كلها من عنده سبحانه.

وبعد هذا الإنكار: يكون طلب الإعلان عن الموقف الصريح: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ثانيًا: ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ والتزم من هذه الأمة، وقيل لي كذلك: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بالله تعالى، يعني: أُمِرْتُ بالإسلام، ونُهِيت عن الشرك؛ حيث إنهما لا يجتمعان أبدًا.

كما أُمِرَ ﷺ أن يعلن كذلك ما يلي:

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٥)

يعني: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، والأمر - كذلك - لأمتي ﷺ، بالتكليف نفسه:

﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بعبادة غيره، أو بإشراك غيره في عبادتي، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة. خاصة وأنه:

﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ (١٦)

يعني: الذي ﴿يُصْرِفْ﴾ ويُبْعِد ﴿عَنْهُ﴾ العذاب، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: في يوم القيامة: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ الله، الرحمة العظمى، وأراد له الخير.

﴿وَذَلِكَ﴾ الصِّرف للعذاب عنه يوم القيامة: هو ﴿الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ والنجاة الحقيقية.

وأي فوز أعظم من النجاة من النار، ودخول الجنة؟!

وإذا كان هناك تصوّر، أو أدنى خاطر في أن إعلان موقف المسلم من ربه ومن دينه، بهذا الشكل المطلوب: قد يتسبب له في أي ضرر، فليعلم جيدًا «أن النفع والضّرّ بيد الله وحده» حيث يقول عز وجل:

﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧)

والمعنى: اعلم أيها المؤمن جيدًا أنه: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ﴾ أي: يصيبك ﴿اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ من مرض، أو فقر، أو إيداء، أو ابتلاء، أو غير ذلك من صُور البلاء، ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ﴾ أي: لا صارف له، ولا منجي منه، ومن ضرره ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه وتعالى.

واعلم أيضًا أنه: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ﴾ أي: يُنْعِمَ عليك الله ﴿بِخَيْرٍ﴾ من غنى، أو صحة، أو منصب، أو جاه، أو ولد، أو غير ذلك، ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: فهي نعمة من قادر، يحفظها عليك، ويديمها عندك، أو يزيلها منك إن أراد وحده.

وزيادة على ما عرفت أيها المؤمن فاعلم - أنت وغيرك - ما يجب أن يكون معلومًا عن المولى ﷻ، يقول الله تعالى:

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (١٨)

يعني: هو الذي خضعت له الرقاب، وعنت له الوجوه، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمته وجلاله وكبريائه وقدرته الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه، وتحت قهره، وحضعت لمشيئته، فلا ينفذ شيء إلا بمشيئته، ولا يكون إلا ما أراد، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله، وأحكامه، وتشريعاته، ﴿الْخَبِيرُ﴾ بمصالح عباده.

ولذلك: لا يعطي إلا عن علم وحكمة، ولا يمنع إلا عن علم وحكمة، سبحانه تعالت عظمته.

قال الكفار للنبي ﷺ: لقد سألنا عنك اليهود - وهم أهل الكتاب - عن صدقك في نبوتك، وطلبنا منهم الشهادة في ذلك.. فأنكروك، وأنكروا نبوتك، فهل أتيتنا بشاهد يشهد لك، فأنزل الله تعالى:

﴿قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْتُكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِئٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾

والمعنى: يسأل الكافرين عن أعظم الأشياء شهادة، أي: عن أعظم الشهداء، ثم أجب بقولك: ﴿اللَّهُ﴾ حيث لن يقولوها عنادًا واستكبارًا، نعم ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ على صدقي فيما أبلغكم به.

وقل لهم كذلك: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ الذي عرفتم ما فيه من إعجاز ومعجزات ﴿لِأُنْذِرَكُمْ﴾ يا أهل مكة، بل يا كفار الدنيا كلها، وكذلك أنذر ﴿مَنْ بَلَغَ﴾ أي: مَنْ بلغه القرآن، من الإنس والجن في أي مكان، وفي أي زمان بعدي إلى يوم القيامة. ثم يوبيخهم، ويبكتهم، بقوله: ﴿أَتَيْتُكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى﴾ هذا لا يصح ولا ينبغي؛ لأنه إله واحد، هو المعبود بحق.

ولذلك: أَنَا ﴿لَا أَشْهَدُ﴾ بما تشهدون. ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ وبذلك أشهد، وأؤمن، ﴿وَإِنِّى﴾ في الوقت ذاته ﴿بَرِئٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ معه سبحانه من الأصنام، والمعبودات الزائفة الأخرى.

هذا ولئن كان أهل الكتاب من اليهود كذبوا على أهل مكة حينما سألوهم عن محمد ﷺ، وطلبوا شهادتهم في أمر صدقه في ادعائه النبوة، فإن الله ﷻ يكشف سترهم، ويفضح كذبهم، ويظهر الحقائق للدنيا كلها بقوله جل وعلا:

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

والمعنى: أن علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى يعرفون صفة النبي ﷺ، من كتبهم ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ وبالتالي، فهم يعرفون صدق نبوته، وعالمية رسالته، وخاتمية بعثته ﷺ.

وعلى ذلك ف ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ من المشركين، والملحدین، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، ﴿فَهُمْ﴾ هؤلاء الذين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ به، ولا بالذي أوحى إليه، وهم حقًا الخاسرون لرضوان الله، ونعيم الجنة. هؤلاء الذين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بمحمد ﷺ: قد ظلموا.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢١) والمعنى: لا أظلم من اثنين: الذي يفترى ويختلق على الله الكذب، كنسبة الشريك إليه، والذي يكذب بآياته، كما فعل أهل الكتاب في إنكارهم للقرآن. والحال والنتيجة أنه: ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ حيث لا ينجون من مكروهه، ولا يفوزون بما يرجون إلى ما يحبون. ثم تنقلنا الآيات الكريمة إلى مشهد من مشاهد القيامة، حيث تقول:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آتِنِ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٢٤)

والمعنى: اذكر أيها العاقل ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا﴾ أي: كل هؤلاء الظالمين، الكاذبين، المكذبين، ماذا يحدث يومذاك؟ ﴿نَقُولُ﴾ توبيخًا ﴿لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ مع الله غيره: ﴿آتِنِ شُرَكَاءُكُمْ﴾ هؤلاء ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنهم آلهة، وتعبدونهم مع الله، أو غير الله؟

أين هم الآن؟! بماذا يجيب هؤلاء الظالمون؟ يقول ربنا: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ﴾ أي: جوابهم، وسمّاه فتنه؛ لأنه جواب كاذب، فتنوا به، وظنوا أنه ينجيهم في هذا الموقف، ماذا قالوا في جوابهم؟ ﴿قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ أمر عجيب، وجواب غريب. ﴿أَنْظِرْ﴾ يا محمد، ويا كل عاقل ﴿كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ بنفيهم الشرك، الذي كانوا فيه غارقين، وله ملازمين، وانظر يا محمد، ويا كل عاقل: كيف ﴿ضَلَّ عَنْهُمْ﴾ وغاب من عقولهم، وعن نجدتهم، وعن نفعهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، من الآلهة المزعومة.

وبعد ذلك: يبين الله لحبيبه أن من الكفار من يستمع إلى القرآن، ولكنه لا يستفيد شيئاً.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾

والمعنى: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: من هؤلاء الظالمين الكاذبين الكافرين ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ حين تتلو القرآن، وهذا في زمن محمد ﷺ، وفي كل زمن بعده إلى يوم القيامة. ﴿و﴾ لكن بعنادهم وجحودهم ﴿جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أعطية ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ تحول بينهم وبين فقهه وفهمه والانتفاع به، ﴿و﴾ كذلك جعلنا ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ثقلًا، يحول بينهم وبين الاستماع النافع.

هؤلاء: لا ينتفعون بعقولهم، ولا بقلوبهم، ولا بأسماعهم، ولا بأبصارهم، حيث إنهم كذلك ﴿وَأَنْ يَرَوْا﴾ بأعينهم ﴿كَلَّ آيَةٍ﴾ دالة على وحدانية الله، وصدق رسالة محمد ﷺ ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ عنادًا واستكبارًا.

﴿حَتَّى﴾ إنهم ﴿إِذَا جَاءُوكَ﴾ وتشرفوا برويتك، وسعدوا بمجالستك، لا ينتفعون بهذا، بل ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾، بماذا يجادلون؟ ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عن القرآن ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي: ما هذا الذي نستمع إليه ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: أكاذيب ينقلها ويحكىها عن الأولين السابقين، ليلفت نظرنا إليه، ويضحك علينا بها.

يقول الله تعالى عن هؤلاء:

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

والمعنى: ﴿وَهُمْ﴾ أي: المشركون ﴿يَنْهَوْنَ﴾ الناس ﴿عَنْهُ﴾ أي: عن القرآن، أو عن محمد ﷺ والإيمان به، واتباعه، ﴿و﴾ كما أنهم - في الوقت ذاته - ﴿يَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾ بأنفسهم، فلا ينتفعون به، ولا يستفيدون منه.

وهم بهذا ﴿وَأِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ ويضرونها ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بخطورة هذا الضرر الغائب عنهم، بعد أن لم يدركوا خطورة الضرر المشاهد في الدنيا.

إذا كان هذا حالهم في الدنيا، فما حالهم في الآخرة؟ يصوره ما يلي من الآيات:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧) ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٢٨) ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٢٩)

والمعنى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ هؤلاء المكذبين ﴿إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي: عاينوا النار ورأوها، أو حين حُسِسوا على الصراط فوق النار، لرأيت منظرًا عجبًا، بل لسمعت ما هو أعجب، ﴿فَقَالُوا يَلَيْتُنَا﴾ وهم يتحسرون ﴿نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا، فنتبع محمدًا، ﴿وَلَا نَكْذِبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ كلها، ومن أعظمها القرآن، ﴿وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: معهم، وفي صفوفهم.

ولكن!! أتى لهم هذا الرجوع، خاصة وأنه اضطراري، لا عن قناعة: ﴿بَلْ﴾ هم لا يؤمنون، إنما الواقع، أنه ﴿بَدَأَ﴾ ظهر واتضح لهم ﴿مَا كَانُوا يُخَفُّونَ﴾ عن الناس من فضائحهم، ومساوئهم، وظلمهم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ هذا الموقف الذي انكشف فيه كل شيء، وشهدت فيه على المرء جوارحه، والحقيقة: أنهم ﴿لَوْ رُدُّوا﴾ إلى الدنيا كما يتمنون الآن ﴿لَعَادُوا﴾ مرة أخرى ﴿لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ من الشرك والمعاصي ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في وعدهم الإيمان إذا عادوا إلى الدنيا.

﴿و﴾ لو عادوا ﴿قَالُوا﴾ مرة أخرى، كما كانوا يقولون ﴿إِن هِيَ إِلَّا﴾ أي: ما هي إلا ﴿حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ فقط ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ مرة أخرى لحساب أو جزاء.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٣٠)

والمعنى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ كذلك هؤلاء المعاندين، يوم القيامة، وقد ﴿وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ يعني حُسِسوا بين يديه للسؤال.

﴿قَالَ﴾ أي: يقول لهم ربهم ﴿أَلَيْسَ هَذَا﴾ الذي أنتم فيه الآن من البعث ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: الواقع الموجود بالفعل؟ فماذا يكون جوابهم؟ لقد كانوا يسمعون عن البعث، أيام كانوا في الدنيا، وكانوا ينكرونه؛ لذا: يجيبون قائلين: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: هو حق،

لا ريب في ذلك، ثم يؤكدون كلامهم بالقسم عليه قائلين: ﴿وَرَبِّنَا﴾ ليؤكدوا الإقرار والاعتراف بالبعث والربوبية، ولكن متى ذلك، وقد فات الأوان !! والنتيجة؟ النتيجة معلومة.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفركم وعنادكم في الدنيا.

هؤلاء الذين كذبوا بالبعث ولقاء الله: قد خسروا، يقول الله تعالى:

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ (٣١) والمعنى: هؤلاء الذين كذبوا ﴿بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ وهو البعث: خسروا خسراناً لا ينتهي. هؤلاء: ﴿إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي: دون علمهم بوقتها، ودون استعداد لها، ولما بعدها.

﴿قَالُوا يَحْسِرُنَا﴾ وهو ندم لا يفيد ﴿عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾ أي: قَصَرْنَا، وتغافلنا عنها، وعن الإيمان بها، والعمل من أجل النجاة فيها، وكان ذلك التفريط: في زمن الدنيا. يقولون ذلك، ويتحسرون بهذا الشكل: ﴿وَهُمْ﴾ في الواقع ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ أي: ذنوبهم ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ لا تفارقهم، ولا يتخففون أو يستريحون منها ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ لأنه بئس الحمل حملهم، وساء الوزر وزرهم.

ما الذي شغل هؤلاء عن الإيمان، وعن العمل الصالح، حتى يتحسرون هذه الحسرة؟ الدنيا!!

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَنْقُوتُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٣٢)

والمعنى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: الانشغال بها، والانقطاع لها، ﴿إِلَّا لَعِبٌ﴾ بترك ما ينفع لما لا ينفع ﴿وَلَهْوٌ﴾ أي: ميل عن الجد إلى الهزل، وما أهلها المنشغلون بها إلا أهل لعب ولهو، وأما الدار الآخرة، وهي دار الخلود: فهي ﴿خَيْرٌ﴾ ونفع، وحياة حقيقية ﴿لِّلَّذِينَ يَنْقُوتُ﴾ ربهم في الدنيا، بترك المعاصي، والإقبال على الطاعات.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ذلك؟! ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قيمة الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة، فتعملون للآخرة؟! ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ عن الله، فتسمعون، وتطيعون وتتقون؛ فتشأبون؟! هذا التكذيب: كان يحزن النبي ﷺ؛ حيث كان يودّ إيمانهم ويرجوه، ولأن الله يحبه، ولا يتركه حزينًا: فقد آنسه، وخفّف عنه، بقوله تعالى:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٣٣)

والمعنى: نحن نعلم يا محمد ﴿إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ عنك، ويكذبون به عليك، من أنك ساحر، وأن ما جئت به هو أساطير الأولين. فلا تهتم بهم، ولا بتكذبيهم، حيث ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ لذاتك، فهم الذين أطلقوا عليك، وعرفوك بالصادق الأمين، وما تكذبيهم لك إلا من باب الظلم، والجحود والإنكار لآيات الله ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ وهم ظالمون، فلا تحزن عليهم، ولا تبتس من أجلهم.

ولأن عموم البلوى: مما يهون الألم، ويخفّف الحزن، فقد قال تعالى لحبيبه ﷺ:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصْرًا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣٤)

والمعنى: لست وحدك يا محمد في تكذيب قومك لك، ف﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ﴾ كثيرة، من إخوانك الذين أرسلوا إلى أقوامهم ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ وأودوا كذلك منهم، فماذا فعلوا؟ ﴿فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا﴾ أي: صبروا على تكذيب قومهم لهم، وإيقاعهم الأذى بهم، ولكن.. إلى متى هذا الصبر على التكذيب والإيذاء؟ ﴿حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصْرًا﴾ على أعدائهم، حيث إنه ليس بعد الصبر إلا النصر، كما هي سنتنا، ووعدنا لأوليائنا، فاصبر حتى يأتيك نصرنا على أعدائك.

﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي: لا مبدل، ولا مغير، لمواعيد الله، في نصره أوليائه على أعدائهم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ بعض أخبارهم، وقصصهم مع أقوامهم، فيما

أوحينا إليك من القرآن؛ لتعتبر بها، وتتصبر بما حدث لأصحابها، وهذا ما ينبغي عليك فعله. أمّا:

﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٥)

يعني: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ﴾ عظم عليك ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ عن الإسلام، بسبب حرصك عليهم، ورغبتك في إيمانهم، فماذا ستفعل، والأمر ليس إليك في هدايتهم؟! على كل حال: ﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ﴾ تجد ﴿نَفَقًا﴾ سربًا، ﴿فِي﴾ باطن ﴿الْأَرْضِ﴾ ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ مما اقترحوا عليك ليؤمنوا: فافعل، كما أنه: إن استطعت - كذلك - أن تجد ﴿سُلَّمًا﴾ تصعد به ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ مما اقترحوا عليك ليؤمنوا: فافعل.

وفي كل الأحوال: لن تستطيع شيئاً من هذا، فاصبر إذاً، واعلم أنه: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هدايتهم: ﴿لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ أي: لجعلهم يختارون الهدى، ولكن لم يشأ ذلك، ولهذا لم يؤمنوا.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ بذلك، وما فيه من الحكم العظيمة.

إن بعد هذا التأنيس، وتهوين شدة موقف الكافرين وعنادهم على رسول الله ﷺ، وعلى الدعاة إلى الله من بعد.

يبين الله تعالى لحبيبه ﷺ أن هؤلاء الكفار لا يسمعون بعقولهم، ولا يستفيدون مما يسمعون؛ لأنهم موتى القلوب:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٣٦)

والمعنى: لا تحزن ولا تهتم يا محمد بمن لا يستجيب لدعوتك من هؤلاء، ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ لها ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ سماع فهم وانتفاع، وهؤلاء الذين يعاندونك، ويكفرون بك وبدعوتك: موتى القلوب، ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: يحييهم يوم القيامة، ﴿ثُمَّ﴾ بعد هذا البعث والإحياء ﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء، فيجازي كل أحد بما يستحق. ومن صور عناد هؤلاء الكفار:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٧)

والمعنى: أنهم ﴿قَالُوا﴾ هَلَّا ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾ ليقنعنا بنبوته ﴿آيَةً﴾ خارقة، كنافذة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى، تكون ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ الذي يدعونا إلى الإيمان به؟ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾ مما اقترحوا، أو غير ذلك من الآيات، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ضرر ذلك عليهم، حيث إنه لو نزلنا لهم ما اقترحوا: لوجب هلاكهم لو لم يؤمنوا، كما حدث لمن سبقهم.

ويلاحظ: أن طلبهم هذا، إهمال منهم لكل ما جاء مع محمد ﷺ من الآيات، وأعلاها شأنًا، القرآن الكريم.

ومع ذلك يبين تعالى بعض آياته العظيمة، فيقول عز وجل:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ تُعَدُّ إِلَيْنَا رَيْبَهُمْ يُحْشَرُونَ﴾ (٢٨)

والمعنى: أن كل نوع من أنواع الحيوان، والطيور أمة من الأمم، وهذا في حد ذاته: آية تدل على الله تعالى؛ بدليل أنه لا ينسى أحدا منها تدييرا ورزقا.

وهكذا ﴿مَا فَرَّطْنَا﴾ أي: تركنا وأهملنا ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ وهو اللوح المحفوظ ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ فلم نكتبه.

حقًا من لم ير هذه الآيات، ويؤمن بها، فأى آية تجعله يؤمن؟ كما أن الجميع من هذه الأمم والخلائق ﴿إِلَيْنَا رَيْبُهُمْ يُحْشَرُونَ﴾ فيقتص من هذا لذاك، ويقضي بينهم جميعًا، وهذه أيضًا آية.

ومع هذا فالذين كفروا: صم وبكم لا يهتدون. كما وصفهم الله بقوله:

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بَيَاتِنَاتِهِمْ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢٩)

والمعنى: والذين كذبوا بالقرآن، وكذبوا محمداً ﷺ، وكفروا بالله تعالى، كالأصم الذي لا يسمع، والأبكم الذي لا يتكلم؛ لأنه لا يستفيد بما يسمع، ولا يتكلم بالحق الذي يعرف،

ومع ذلك يعيش في ظلمات الجهل والشك، فكيف يهتدي إلى الحق مثل هذا؟ هؤلاء لا يكون منهم إيمان؛ لفساد طبعهم وطبيعتهم.

﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ﴾ لفساد طبعه ﴿وَمَنْ يَشَأِ﴾ هدايته ﴿يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ﴾ طريق ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو دين الإسلام.

ثم يأمر تعالى نبيه بتوجيه الخطاب إلى الكفار المعاندين، حيث يقول الله تعالى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

والمعنى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ردًا عليهم في اقتراحهم أن تأتيهم بآية من ربك: أخبروني ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ في الدنيا، أو في الآخرة!! ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ يعني: فاجأتكم القيامة!! ماذا تفعلون؟ ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ﴾ من آلهتكم المزعومة ﴿تَدْعُونَ﴾ يعني: تستغيثون بها، وتطلبون منها إنقاذكم مما أنتم فيه.

على كل حال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنها تنفعكم، وتدفع عنكم الضر فادعوها. وفي الحقيقة دعاؤكم لها لن يحدث، واستغاثتكم بها لن تكون:

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾

يعني: في ذلك الوقت العصيب لن يكون دعاؤكم إلا لله، واستغاثتكم لن تكون إلا بالله. كما أنه: لن يكشف عنكم ما بكم إلا الله تعالى إن شاء ذلك، فضلًا منه ورحمة.

وأما آلهتكم التي كنتم تعبدونها وتشركونها مع الله: فإنكم تنسونها تمامًا في هذا الوقت، الذي تدركون فيه جيدًا أنه لا يضر ولا ينفع إلا الله سبحانه وتعالى.

ثم يبين ربنا سبحانه لنبيه عليه الصلاة والسلام، أن التكذيب عادة الأمم مع إخوانه من النبيين قبله؛ حتى لا يزداد ألمه وحزنه من أجلهم، فيقول جل جلاله:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾

والمعنى: لقد أرسلنا رسلاً من قبلك يا محمد إلى الأمم السابقة، لتبلغهم رسالة الله ودعوتهم إلى التوحيد.. فكذبوهم، كما كذبك قومك، ﴿فَآخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: أصبناهم بالبؤس، والفقر، والجوع، والمرض، ونقصان الأنفس والثمرات، أتدري

لماذا؟ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: لعلهم يعرفون ربهم، فيؤمنون به، ويتوبون عن ذنوبهم، ويخشعون له، ويتضرعون إليه أن يكشف عنهم ما نزل بهم. ثم ماذا فعلوا؟

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤٣)

والمعنى: أنهم عاندوا، ولم يتضرعوا، ولم يؤمنوا، أما كان الأولى بهم، والأنفع لهم ﴿إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا﴾ أن يتركوا عنادهم، ويـ ﴿تَضَرَّعُوا﴾؟ ﴿وَلَكِنْ﴾ ما الذي جعلهم لا يتضرعون؟ لقد ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ واستمرت على ما هي عليه من العناد، بل زادت فيه. ما السبب في هذه القسوة؟ إنه الشيطان: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من المعاصي، والكفر بالله، والعناد لرسله ﷺ، فماذا حدث لهم بعد ذلك؟ يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (٤٤)

والمعنى: فلما قست قلوبهم، وزين لهم الشيطان أعمالهم، وأهملوا ما ذكرتهم ووعظتهم به أنبياءهم!! ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من ملذات الحياة، بعد البؤس الذي كانوا فيه؛ استدرجوا لهم، ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ فرح الظالمون، الذين لا يشكرون الله على نعمه، واطمأنوا على أحوالهم، ﴿أَخَذْنَاهُمْ﴾ بالعذاب فجأة، من حيث لا يتوقعون.

ويلاحظ: أن نزول العذاب بهم، وهم في حالة الرخاء والسلامة، أشد عليهم وقعاً، وأكثر لهم ألماً.

فلما حدث ذلك: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ إذا هم متحIRON في أمرهم، يائسون من كل خير، حزائي منكسرون. وهكذا:

﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٥)

يعني: قطع دابرهم، وانتهوا عن آخرهم، بسبب ظلمهم، ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حيث نصر المرسلين، وأهلك الظالمين.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَنَّمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ (٤٦)

﴿قُلْ﴾ يا محمد للكافرين المكذبين المعاندين: أخبروني إن أصابكم الله بالصمم، وأعماكم، بأن أخذ سمعكم وأبصاركم، ﴿وَخَنَّمَ﴾ كذلك، يعني: طبع ﴿عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ بحيث لا تعرفون شيئاً، ولا تميزون شيئاً: هل يقدر أحد غير الله تعالى أن يرد ذلك أو شيئاً منه، ويعيده إليكم، كما كان؟ إن أمرهم لعجيب!!

﴿أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ نُبَيِّنُ، ونُضَوِّعُ لهم ﴿الْآيَاتِ﴾ والدلائل، على وحدانيتنا وقدرتنا؛ لكي يؤمنوا، ﴿ثُمَّ هُمْ﴾ بعد ذلك كله ﴿يَصْدِفُونَ﴾ يعني يُعْرِضُونَ عنها، ولا يعتبرون بها، ولا يؤمنون بسببها. أيضاً قل لهم يا محمد:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ (٤٧)

يعني: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للكافرين المكذبين المعاندين: أخبروني ﴿إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ وحلَّ بكم ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة، دون علامة تسبقه ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ بأن سبقته علامات تدل على قرب وقوعه، ﴿هَلْ يُهْلِكُ﴾ هلاك سخط من الله تعالى، وغضب عليهم ﴿إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ وهم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بربهم. ثم يبيِّن ربنا ﷻ وظائف الرسل ﷺ، حيث يقول:

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٤٨)

يعني: لم نرسل هؤلاء الرسل لتقترح عليهم الآيات، ويكونوا محل اختبار من أقوامهم بل هم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ بالخير للصالحين، ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ بالشر للعصاة. وعلى ذلك: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ﴾ بالله، وبما جاءوا به ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عمله، فرداً كان أو جماعة: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من العذاب في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم، أو فاتوه وتركوه، من متاع الدنيا الزائل. وأما غير هؤلاء، فيقول تعالى عنهم:

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمْسُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٤٩)

يعني: الفريق الآخر من أقوام الرسل، وهم ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ بآياتنا، وعاندوا رسلنا فهؤلاء: ﴿يَمَسُّهُمْ الْعَذَابُ﴾ أي: ينالهم، وينزل بهم، في الدنيا والآخرة، وذلك ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم، وخروجهم عن طاعة الله، ومتابعة الرسل. يا محمد:

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ يعني: لهؤلاء الكافرين المكذبين المعاندين: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ التي يرزق منها عباده، حتى أتصرف فيها، كما تريدون، وتقترحون على قلب الجبال ذهباً، ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ حتى تسألوني عن وقت قيام الساعة، ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتى تطلبوا مني الصعود إلى السماء، أي: أنني لست بهذا ولا ذاك، إنما أنا بشر ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ من ربي، فأبلغكم به، لا أنقص منه، ولا أزيد عليه.

﴿قُلْ﴾ لهم، بعد هذا التوضيح، وهذا البيان: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ يعني الكافر الذي ضل الطريق، والمؤمن الذي هُدي إلى صراط مستقيم؟ لا يمكن أبداً أن يستويا. وما دام الأمر كذلك ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فتعقلون، فتؤمنون؟

هؤلاء المعاندون: لا يخافون ولا يتعظون!! يا محمد بعد أن بلغتهم وأنذرتهم: اتركهم، ولا تشغل بهم:

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

يعني: خوف بالقرآن الذين يخافون ربهم، ويتعظون بآياته، ويخافون لقاءه في يوم الحشر، يوم ﴿أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني غيره سبحانه ﴿وَلِيٌّ﴾ يتولى أمرهم ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لهم في دفع العذاب عنهم، وهؤلاء: هم عصاة المؤمنين خوَّفهم بالعذاب ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ربهم فيقبلون على صاعته، ويتعدون عن معصيته.

مناسبة الكلام على المؤمنين، فإن الكفار طلبوا من النبي ﷺ أن يطرد فقراء

المسلمين من مجلسه، حتى يجلسوا هم معه، قال ﷺ: «ما أنا بطارد المؤمنين».

قال الكفار: فاجعل لنا يوماً نجلس معك فيه، وتحدث العرب بفضلنا، فإذا فرغنا فاقعد معهم إن شئت، فوافق ﷺ على ذلك.

وهنا نزل جبريل ﷺ بقوله تعالى:

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَىٰ وَالْمَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٢)

الآية الكريمة - كما هو واضح - نهي للنبي ﷺ - وهو للدعاة كذلك من بعده - عن طرد الفقراء الذين يعبدون الله، ويخلصون في طلب العلم، من مجلس العلم والمعرفة، ومن يطرد هؤلاء: فهو من الظالمين.

والمعنى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ من مجلسك، هؤلاء المؤمنين الفقراء ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي: يعبدونه ﴿بِالْعَدْوَىٰ وَالْمَشِيِّ﴾ يعني بالصلوات كلها في الأوقات كلها ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: مخلصين لله في عبادتهم له، وطلب عفوه وغفرانه، وليس شيئاً من أغراض الدنيا ومتاعها الزائل.

خاصة وأنه: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني ما عليك رزقهم، حتى يشق عليك ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾، ولكن رزقهم على الله تعالى، كما أن رزقك ليس عليهم كذلك، لا تطردهم ﴿فَتَكُونَ﴾ بسبب ذلك ﴿مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ إن فعلت ذلك.

ما الحكمة في أن يكون أتباع الرسل عادة من الفقراء؟ يقول الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ (٥٢)

أي: كان أتباع الرسل عادة من الفقراء اختباراً وامتحاناً لأهل الكبر، هل يتخلّون عن كبرهم، ويتقبلون شرع الله؟ وعلى كل حال: فالاختبار للطرفين الأغنياء والفقراء.

﴿لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا؟﴾ يعني: يقول الأغنياء المتكبرون

على الفقراء: أهؤلاء الفقراء من الله عليهم بالإسلام دوننا، حيث سبقونا إلى الإيمان؟ ويقول الفقراء المتطلعون إلى الأغنياء أهؤلاء الأغنياء غير المؤمنين، من الله عليهم بسعة الرزق دوننا؟ وهذه فتنة واختبار للفريقين، والله عليم - في الوقت ذاته - بمن يشكره من الفريقين.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ له؛ فيهديهم إلى الصواب؟ بلى، وألف بلى.

ثم يكون الأمر للنبي ﷺ بتكريم المؤمنين، في قوله تبارك تعالى:

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

المعنى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ﴾ من نهيناك عن طردهم من مجلسك، وهم ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ أي: الموصوفون بالإيمان بآيات الله، كما وُصفوا في الآيات السابقة بالمداومة على عبادته ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢] يعني: الذين جمعوا بين فضيلة العلم وفضيلة العمل. ﴿فَقُلْ﴾ لهم:

أولاً: ﴿سَلَمٌ﴾ من الله تعالى ﴿عَلَيْكُمْ﴾ إكراماً لكم.

ثانياً: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ قضى ربكم بسعة رحمته عليكم، وقبوله التوبة منكم، تفضلاً منه سبحانه وإحساناً.

ثالثاً: ومن رحمته ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا﴾ أي: ذنباً ﴿بِجَهْلَةٍ﴾ منه لخطورة المعصية ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ رجع عن ذنبه، ولم يصر عليه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عمله وسلوكه: ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ﴾ لأهل الإيمان ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

من أول السورة إلى هنا، يقول عنه تبارك وتعالى:

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

أي: بهذا التوضيح نبين ﴿الْآيَاتِ﴾ المسطورة في القرآن، والمنظورة في الأنفس والأكوان: ليظهر الحق فيعمل به، والباطل فيبتعد عنه، أيضاً ﴿وَلِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لتظهر ﴿سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني طريقهم، وما فيه من مخاطر وأضرار عليهم؛ فيجتنبوه.

ثم يأمر المولى تبارك وتعالى محمداً ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار، المعاندين، المتكبرين أربعة أشياء:

الأول: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَنْبِئُكُمْ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿٥٦﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المعاندين، ﴿إِنِّي نُهَيْتُ﴾ من ربي ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهي الأصنام، التي كانوا يعبدونها، وصُرفت عن ذلك بفضل الله تعالى، وفي ذلك: قطع لآمالهم الفارغة في ركوبك إليهم.

الثاني: ﴿قُلْ لَا أَنْبِئُكُمْ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ يعني: ﴿قُلْ﴾ يا محمد - كذلك - لهم، ﴿لَا أَنْبِئُكُمْ أَهْوَاءَكُمْ﴾ الضالة، المنحرفة، التي لا تقود إلى خير أبداً، ولو فعلت، واتبعت أهواءكم، وانحرفت عن ديني ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾ وصرت ضالاً منحرفاً مثلكم، ﴿وَمَا﴾ كنت في هذه الحالة ﴿مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ كما أنكم لستم بمهتدين.

الثالث: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِلَّا الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ ﴿٥٧﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم، ثالثاً:

﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ دليل وبرهان واضح بصدق ما أنا عليه، هذه البينة، وهذا الدليل: منزل ﴿مِنْ رَبِّي﴾ وهو القرآن الكريم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢].

وأما أنتم فقد ﴿كَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ أي: بالقرآن، ولم تؤمنوا بالله تعالى، ولذا صرتم مستحقين لعذاب الله.

فلما استعجلوا مجيء هذا العذاب، على سبيل الاستهزاء به: قال: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب، بل العذاب عند الله تعالى.

وما ﴿الْحُكْمُ﴾ في أمر هذا العذاب، أو مجيئه، أو غير ذلك ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ وليس لي، ولا لأحد سواه، فهو سبحانه ﴿يَقْضُ الْحَقُّ﴾ أي: لا يحكم إلا بحق، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ الحاكمين، بيني وبينكم.

الرابع: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٥٨)

يعني: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين الكافرين، ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدِي﴾ وببيدي، ومفوض إلي من الله تعالى، ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ وهو العذاب، ﴿لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: لجئت به، وعُذبتُم حقًا، كما تستعجلونه استهزاءً، واسترحت منكم، ومن عنادكم، ولكن ذلك ليس بيدي، بل هو عند الله عز وجل.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ ووقت عقابهم المناسب، وأنتم ظالمون، وسيعاقبكم ربي تبارك وتعالى، في وقت لا يعلمه إلا هو.

وإذا كان إيقاع العذاب بالكافرين: من اختصاص قدرة الله تعالى، فإن معرفة وقت عذابهم: من اختصاص علم الله سبحانه، حيث يقول ربنا عز وجل:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٥٩)

ومعنى الآية: ﴿وَعِنْدَهُ﴾ تعالى، وحده ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ أي: خزائن الغيب، وما فيه، أو عنده الطرق الموصلة إلى علم الغيب، ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ فقط.

وهذه المفاتيح للغيب، التي لا يعلمها إلا هو سبحانه: هي الخمسة المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

وبعد أن بين ربنا تعلق علمه بالغيبيات: ذكر تعلق علمه - كذلك - بالمشاهدات، فقال باديًا في تفصيل بيان ذلك:

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ وما فيهما من عجائب مخلوقاته الدالة على عظم قدرته، وسعة علمه تبارك وتعالى.

ثم بين علمه - سبحانه - بأحوال ما في البر والبحر كذلك، فقال: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ لأنه مسقطها بإرادته، ﴿وَلَا حَبَّةٌ﴾ موجودة ﴿فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ﴾ إلا يعلمها، ﴿وَلَا رَطْبٌ﴾ حي من النبات، أو غيره ﴿وَلَا يَأْسٌ﴾ ميت من

النبات - كذلك - أو غيره، إلا يعلمه سبحانه، كل ذلك مسجل ومدون ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ واضح، لا يعلمه ولا يعلم ما فيه، إلا الله.

ثم يبين الله تعالى أثرًا من آثار قدرته، وقهره لعباده، حيث يقول عز وجل:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

أي: ﴿وَهُوَ﴾ الله ﴿الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ وذلك بقطع أرواحكم عن باطنكم، فتنامون، وهو الذي ﴿يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم﴾ أي: ما كسبتم وفعلتم ﴿بِالنَّهَارِ﴾ وبالليل أيضًا، ﴿ثُمَّ﴾ هو الذي ﴿يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي: يوصل أرواحكم بباطنكم وظاهركم، فتستيقظون، سواء كان في النهار أو في الليل، وذلك النوم، وتلك اليقظة - وهي مظهر من مظاهر قدرته سبحانه - ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ عند الله أي: لتتم حياتكم إلى أن يأتي أجل الموت الذي تنتهي عنده الحياة، وتنقطع أرواحكم عن ظاهركم وباطنكم.

﴿ثُمَّ﴾ بعد ذلك ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم البعث من القبور، ﴿ثُمَّ﴾ في هذا اليوم ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يخبركم، ويحاسبكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر.

وبعد ذلك: يصرِّح ربنا عز وجل بقهره لعباده، فيقول جل جلاله:

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿٦١﴾﴾

يعني: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ الغالب، المتصرِّف في أمورهم، لا غيره - سبحانه - حيث يفعل بهم ما يشاء، خلقًا وإفناءً، وإحياءً وإماتةً، وإثابةً وتعذيبًا.

﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ من الملائكة، يحفظونكم، ويحافظون عليكم، وآخرين منهم يحفظون أعمالكم ويسجلونها عليكم، وهؤلاء الحفظة: يكونون معكم، يؤدُّون هذه المهام طيلة حياتكم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ وانتهى أجله، ومدة بقائه في الدنيا، ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي: توفاه الله تعالى، بأن أمر ملك الموت بقبض روحه، وأمر أعوان ملك

الموت بنزع هذه الروح من الجسد، ﴿وَهُمْ﴾ في القيام بهذه المهمة ﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي: لا يقصرون، لأنهم ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

وبعد قبض أرواح البشر، وموتهم ماذا يكون؟

﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمْ الْحَقُّ ۖ آلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِينَ﴾^(٦٢)
أي: ﴿ثُمَّ﴾ بعد الموت، يكون البعث لجميع الخلائق ﴿رُدُّوْا﴾، ويعودون إلى الله تعالى، الذي هو ﴿مَوْلَهُمْ الْحَقُّ﴾ حيث لا مولى ولا ناصر، في هذا اليوم إلا هو سبحانه، وهو الحكم العدل.

﴿آلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ في الدنيا والآخرة، يفصل بين الخلائق، يجازي العاصي، ويثيب المطيع، ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِينَ﴾ لا يشغله حساب عن حساب، ولا اعتبار للوقت - عنده - في هذا الحساب، حيث لا يحتاج - سبحانه - إلى فكر وعدّ، كما يحتاج البشر.

بعد هذا التخويف المفيد من رب العالمين لعباده، يأمر ربنا - تبارك وتعالى - محمداً ﷺ أن يذكر ببعض ألوان من قدرة الله عليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ﴾ [الأنعام: ٦٥] فيؤمنون، حيث يقول الله تعالى:

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾^(٦٣)

والمعنى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المعاندين توبيخًا وتذكيرًا، ﴿مَنْ﴾ الذي ﴿يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ أهوالهما، ومخاوفهما سوى الله سبحانه وتعالى، الذي ﴿تَدْعُونَهُ﴾ عند الشدائد ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي: في السر والجهر؟ تقولون ساعته: ﴿لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ﴾ الأهوال والمخاوف والشدائد ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ لك ﴿مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ المؤمنين بك، المطيعين لأمرك، المتبعين لرسلك.

فماذا يحدث بعد دعائهم وقولهم هذا؟

﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ﴾^(٦٤)
أي: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، ﴿اللَّهُ﴾ وحده، هو الذي ﴿يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا﴾ أي: من هذه

الظلمات في البر والبحر، والمخاوف، والشدائد، كما ينجيكم سبحانه وتعالى: ﴿مِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ يصيكم. ومع ذلك:

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ﴾ الذين قُلتُمْ: ﴿لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣].

فبعد أن ﴿يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾، فلماذا ﴿تُشْكِرُونَ﴾ به سبحانه؟.

أهذا يعقل؟ أهذا يقبل؟! يا محمد:

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْسِكُمْ سُوءًا وَيَذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ (٦٥)

والمعنى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المعاندين محذراً: الله ربي ﴿هُوَ الْقَادِرُ﴾ وحده ﴿عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ كالحجارة، والصيحة، والصواريخ والقنابل،... إلخ، أو يبعث إليكم عذاباً ﴿مِّنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ﴾ كالخسف، والزلازل، والبراكين، والفيضانات... إلخ، ﴿أَوْ يَلْسِكُمْ﴾ أي: يجعلكم وأنتم مع بعضكم البعض مختلطين ﴿سُوءًا﴾ أي: فرقاً، مختلفة الاتجاهات، متنازعة الرغبات والأهواء، ﴿وَيَذِيقَ بَعْضَكُمْ﴾ بسبب هذا التحالف والتنازع ﴿بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أي: عذاب بعض.

حقاً إنها ابتلاءات، وتخويفات شديدة، وتحذيرات أكيدة، فماذا فعل المعاندون؟ ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ ننوع الآيات الدالة على قدرتنا لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ ولكنهم لا يفقهون.

﴿وَكَذَّبَ بِهٖ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٦٦)

والمعنى: أنه بعد كل هذا البيان، والتحذير ﴿كَذَّبَ بِهٖ﴾ أي: بالقرآن، وما فيه من التخويف بالعذاب ﴿قَوْمُكَ﴾ أي: كل من عاندك من البشر أجمعين، حيث إنك مرسل لجميع العالمين، ﴿و﴾ كان عليهم أن يؤمنوا؛ لأنهم يعلمون علم اليقين، أنك نبي، وأن القرآن ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ وكل ما فيه حق.

وعلى كل حال: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: بحفيظ، يمنعكم من الكفر، أو يعاقبكم عليه، بل ذلك إلى الله تعالى. وقل لهم - أيضاً - يا محمد:

﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٦٧)

يعني: لكل أمر أو انه، ولكل شيء أخبر بوقوعه القرآن وقته المقدر فيه حدوثه، ومن ذلك: عذابكم، ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ساعتها ما يحدث لكم، وينزل بكم أيها الكافرون. ثم يحدد الله تعالى لنبيه ﷺ موقفه من هؤلاء المعاندين، وذلك قبل الأمر بقتالهم، حيث يقول عز وجل:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٦٨)

والمعنى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ يا محمد، أو يا أيها المؤمن ﴿الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أي: يستهزئون بالقرآن، ويطعنون فيه، وأنت لا تقدر على رد استهزائهم ومنعه، أو الدفاع عنه، وإبطال مطاعنهم ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تجالسهم، ولا تخالطهم، وابتعد عنهم، ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ حتى يبتعدوا عن ذلك، وينشغلوا بحديث غيره، أو أمر آخر.

﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ﴾ هذا النهي، فجلست معهم، وخالطتهم، فإن الله يغفر لك بسبب هذا النسيان، ولكن بشرط: ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ﴾ مرة أخرى ﴿مَعَ﴾ هؤلاء ﴿الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين، المعاندين، حيث لا ظلم أكبر من ظلم الاستهزاء بآيات الله، والتكذيب بها.

لما نزلت الآية السابقة، قال المسلمون: إن قمنا كلما خاضوا في آيات الله واستهزءوا بها، لم نستطع أن نجلس في المسجد، ولا أن نطوف بالبيت، وهنا نزل قوله تعالى:

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَٰكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٦٩)

والمعنى: ليس على ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الله، شيء من ذنوب هؤلاء، إذا هم جالسوهم، فذلك مباح لهم، وفق ما شرع الله، ﴿وَلَٰكِنْ﴾ عليهم أن يفارقوا مجلسهم إن خاضوا واستهزءوا بآيات الله، كما أن عليهم أن يعظوهم، من باب الـ ﴿ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله، فيكفون عن ذلك، ويؤمنون.

ومن هذا نفهم أن موضوع الرد على المستهزئين بآيات الله، والطاعنين في القرآن الكريم: له اعتبارات.

حيث إن المؤمن إذا لم يكن مؤملاً لهذا الرد وعالمًا به، فلا عليه إلا أن يسكت بشرط عدم الرضا، وعدم مخالطة المستهزئين، وأما إذا كان عالمًا بالرد مستطيعًا له، فعليه أن يرد، وفقًا للضوابط الشرعية، وذلك من باب الذكرى والموعظة، وتبليغ الرسالة.

ولذلك: على المسلم أن يكون على ذكر وفهم لهذه الآية؛ حيث كثر في زماننا الخوض والطمع في آيات الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وعلى كل حال:

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِمْ أَن تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يعني: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ أي: اترك هؤلاء الكافرين المعاندين الذين اتخذوا وجعلوا ﴿دِينَهُمْ﴾ الذي فرض عليهم، وأمروا باتباعه ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ باستهزائهم به، وإعراضهم عنه ﴿وَعَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ وزخرفها بذلك الذي يفعلونه، اتركهم ولا تتعرض لهم.

﴿وَذَكَرَ﴾ فقط ﴿بِهِمْ﴾ أي: بالقرآن وما فيه، هؤلاء القوم وعظهم، وذلك: خوفًا عليهم، من ﴿أَن تَبْسَلَ﴾ تمنع، وتحبس ﴿نَفْسٌ﴾ من هؤلاء ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: بما عملت من سوء، حيث تبسل أي: تمنع من دخول الجنة، وتحبس في النار، و﴿لَيْسَ لَهَا﴾ في هذا الوقت، وهذا الحال غير الله تعالى، ﴿وَلِيٌّ﴾ يدفع عنها هذا العذاب ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يطلب التخفيف أو النجاة لها، حتى ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ﴾ أي: تدفع كل شيء فداء لنفسها لا يقبل، و﴿لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا﴾.

﴿أُولَئِكَ﴾ المستهزئون، ﴿الَّذِينَ أُبْسِلُوا﴾ حبسوا عن الجنة، وحبسوا في النار ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ وعملوا ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ماء حار، يُقَطِّعُ أمعاءهم، ولهم كذلك ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم غاية الألم، وكان ذلك: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم. وحتى يفيق هؤلاء الكافرون من ضلالهم:

﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ

كَالَّذِي أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أَقِنَّا قُلْ
إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾

قيل: إن ابنًا لأبي بكر (رضي الله عنه)، لم يكن قد أسلم بعد، دعا أباه إلى عبادة الأصنام، فنزلت هذه الآية.

ومعناها: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، أو يا أبا بكر، أو يا أيها المؤمن، أنعبد ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: غير الله ﴿مَا لَا يَنْفَعُنَا﴾ بشيء ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾ بشيء، وندعوه لقضاء حاجتنا، وإجابة دعائنا؟! ﴿وَنُرَدُّ﴾ في الوقت ذاته ﴿عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ أي: إلى الكفر بعد الإيمان، وإلى الضلال بعد الهداية، وذلك ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ﴾ ووفّقنا إلى رحاب دينه، وأجواء طاعته!!! ونكون في هذه الحال: ﴿كَالَّذِي أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ فأضلّته عن الحق والنور والهدى، وجعلته ﴿فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ﴾ تائها لا يدرى أين يذهب، ولا ماذا يفعل؟ مع أن ﴿لَهُ أَصْحَابٌ﴾ مؤمنون، صالحون ﴿يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ ليهدوه إلى طريق الصواب والفلاح، قائلين له: ﴿أَقِنَّا﴾ تعال معنا إلى الخير، ورضوان الله، ولكنه لا يُجيبهم، ولا يسير معهم، ولا يهتدي بهدى الله.

يا محمد، ويا أيها المؤمن أعلنها صريحة للعالم كلها ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ﴾ الذي هو الإسلام: ﴿هُوَ الْهُدَى﴾ الحقيقي، وما عداه ضلال وضيع، وقل: ﴿وَأَمْرًا لِنُسْلِمَ﴾ وحونها وأمورنا ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وقل كذلك:

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿٧٢﴾

أي: وأمرت ﴿أَنْ﴾ أقول كذلك ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: كونوا خاضعين لله، خاشعين لجلاله، مؤدّين لتعاليمه وأحكامه، ﴿وَآتَوْهُ﴾ فلا تعصوه.

﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيجازيكم على ما قدمتموه، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿٧٣﴾

والمعنى: هذا الإله، الذي أمرنا أن نسلم له، وأن نقيم الصلاة، وأن نتقيه ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وما فيهما، ومن فيهما ﴿يَالْحَقُّ﴾ أي: بالحكمة والحق، وهو الذي حين ﴿يَقُولُ﴾ للشيء ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ بلا تمنع ولا تأخير.
حيث إن: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ الصدق الواقع لا محالة، فلا رادّ لقوله، ولا معقّب لحكمه، ﴿وَهُوَ الَّذِي﴾ هو الذي ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ وحده ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ يوم القيامة.

وهو ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ﴾ ما غاب ﴿وَالشَّهِيدُ﴾ أي: ما شوهده، أي: عالم السر والعلانية، عالم ما غاب عن العباد، وما هو مشهود لهم.
﴿وَهُوَ﴾ كذلك ﴿الْحَكِيمُ﴾ في كل أفعاله وأحكامه وتشريعاته، ﴿الْخَبِيرُ﴾ بباطن الأشياء كظواهرها، وبالحساب والعزاء.
يا محمد: بعد أن أنكرت عليهم عبادة ما لا ينفع ولا يضر، اذكر لهم إبراهيم عليه السلام الذي يدعون أنهم على ملته:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَأَيْتَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾

في هذه الآية وما بعدها: مناقشة من إبراهيم عليه السلام للكفر وأهله، وإبطال لدعواهم عبادة غير الله، وإبطال لحججهم.
ومعنى الآية: اذكر يا محمد للكفار وقت أن ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ تعبدها من دون الله: هل هذا يليق منك، وهي لا تستحق ذلك؟!
﴿إِنِّي أَرَأَيْتَكَ وَقَوْمَكَ﴾ فيما تفعلونه هذا ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ عن الحق واضح ﴿مُبِينٍ﴾ لا خفاء فيه على عاقل أبداً، وهذا تقبيح للشرك وأهله.

﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾
يعني: وكما أرينا إبراهيم قبح الشرك فيما سبق بعين البصيرة والعقل، نريه ﴿مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لطائف السموات والأرض، فيما يأتي، بعين البصر والمشاهدة،

ليستدل به على وحدانيته، ﴿وَلْيَكُونَ﴾ بسبب هذه الدلائل والمشاهدات ﴿مِّنَ الْمُوقِنِينَ﴾ بوحدانية الله تعالى، وقدرته.

وهذه بداية استعراض بعض ما في الملكوت، على طريقة إسقاط أدلتهم التي يتمسحون بها، قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ (٧٦)

يعني: عندما أظلم الليل على إبراهيم عليه السلام ﴿رَأَىٰ كَوْكَبًا﴾ جهة السماء، وكانوا يعبدون الكواكب، وهنا: ﴿قَالَ﴾ لقومه ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ كما تزعمون وتدعون، ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أي: غاب هذا الكوكب، أراد أن ينبههم إلى الخطأ في دينهم، ويرشدهم إلى الصواب، لذلك ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿لَا أُحِبُّ﴾ أن أتخذ ﴿الْآفِلِينَ﴾ الذين يغيبون أرباباً؛ حيث إن الرب لا يجوز عليه التغير والانتقال.

فهل أقنعهم ذلك؟ أبداً، ولهذا انتقل إلى دليل مشاهد آخر. يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ (٧٧)

يعني: وعندما أظلم الليل على إبراهيم عليه السلام ﴿رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِعًا﴾ طالعا في السماء، وهنا: ﴿قَالَ﴾ لقومه ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ كما تزعمون وتدعون، ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أي: غاب القمر واختفى، أراد أن ينبههم أنهم في ضلال وعلى غير هدى، ولكن بطريق غير مباشر، لذلك ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿لَيْنَ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ ويثبتني على الهدى ﴿لَأَكُونَنَّ﴾ مثلكم ﴿مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾.

فهل أقنعهم ذلك؟ أبداً، ولهذا انتقل إلى دليل مشاهد آخر.

﴿فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ﴾ (٧٨)

يعني: وعندما طلع النهار على إبراهيم عليه السلام ﴿رَأَىٰ الشَّمْسَ بَازِعَةً﴾ أي: طالعة بنورها على الكون، وهنا: ﴿قَالَ﴾ لقومه ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ كما تزعمون وتدعون، وزاد

قَائِلًا ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ من الكوكب الذي رأيته وأفل، ومن القمر الذي رأيته وأفل، ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ أي: غابت هي الأخرى قويت عليهم الحجة، وسقطت أدلتهم في عبادتهم للكواكب والنجوم.

فهل اقتنعوا بالتوحيد، وتركوا شركهم الذي هم عليه؟ أبدًا.
لذلك: أعلن إبراهيم عليه السلام بكل وضوح وصراحة، البراءة مما يشركون.
وكأنهم قالوا: ماذا تعبد أنت؟ فأجابهم قائلًا:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٧٩)

يعني: إنني أسلمت أمري، و﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ وأخلصت بعبادتي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ﴾ أي: خلق ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وهو الله، وفي الوقت ذاته ﴿حَنِيفًا﴾ يعني مائلًا عن الأديان كلها والمعبودات غير الله كلها، إلى الله وحده، ﴿وَمَا أَنَا عَلَىٰ هَذَا الْحَالِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ به مثلكم.

هل اقتنعوا وآمنوا؟ أبدًا...!! فماذا فعلوا؟ يقول الله تعالى:

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْجِجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٨٠)

يعني: لم يؤمن قومه، ولم يتركوه، بل جادلوه في دينه، وفي توحيد الله، وهنا: ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿أَتُحْجِجُونِي فِي اللَّهِ﴾ أي: أتجادلونني في توحيد الله، وترغبون في جعلي معكم في الشرك ﴿وَقَدْ﴾ أنعم عليّ ربي، و﴿هَدَانِ﴾ إلى توحيده، ورحمته.

فهدّدوه، وخوّفوه من أصنامهم أن تصيبه بسوء وأذى ﴿و﴾ هنا قال لهم، أنا ﴿لَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ من الأصنام والكواكب والنجوم، ولن يصيبني سوء منها لعدم قدرتها على ذلك، ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ ولكن إذا شاء ربي أن يصيبني من السوء شيئًا، بصفة عامة يكون. وذلك بمشيئته هو، لا بمشيئة الأصنام.

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: وسع علمه كل شيء وأحاط به ﴿أَفَلَا

تَذَكَّرُونَ ﴿٨١﴾ فتميّزون بين القادر والعاجز، فتؤمنون!! ثم قال إبراهيم عليه السلام لهم:

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

والمعنى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ بالله من أصنامكم، التي تخوّفونني منها، وهي لا تضر ولا تنفع، ﴿وَلَا تَخَافُونَ﴾ أنتم من ربي، الذي بيده الضر والنفع، و ﴿أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ﴾ في العبادة ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ﴾ أي: بإشراكه معه ﴿سُلْطَانًا﴾ يعني: دليلاً على أنه شريك لله.

وعلى ذلك: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أنا وأنتم: ﴿أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ من العذاب؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ من الأحق بالأمن حقيقة: فأمنوا.

ثم بين لهم الذين هم أحق بالأمن؛ حيث قال:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْآمَنُونَ هُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾

يعني: الآمنون من عذاب الله تعالى، هم ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ به سبحانه، واتبعوا رسله ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا﴾ يخلطوا ﴿إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أي: بشرك، ﴿أُولَٰئِكَ﴾ وليس المشركون ﴿هُمُ الْآمَنُونَ﴾ من العذاب ﴿وَهُمْ﴾ في الوقت ذاته ﴿مُهْتَدُونَ﴾. يقول الله تعالى بعد هذا كله:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

والمعنى: هذه المحاورات والأدلة التي قدمها إبراهيم عليه السلام، على توحيد الله، وقدرته، واحتج بها على قومه وبطلان ما هم عليه من الشرك: ﴿ءَاتَيْنَاهَا﴾ أرشدنا إبراهيم إليها، وعلمناه إياها، ليتغلب بها ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ وضلالهم.

وفي ذلك: رفع لقدره، وإعزاز لجانبه؛ حيث إننا ﴿نَرْفَعُ﴾ من نشاء رفعه ﴿دَرَجَاتٍ﴾ فوق درجات، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿حَكِيمٌ﴾ في رفعه من يشاء ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق رفع القدر ومن لا يستحق.

ولمَّا غلب إبراهيم خصومه، وانتصر عليهم في باطلهم بدلائله القوية، التي علَّمه إياها.
ولمَّا لم يستجيبوا لدعوته: اعتزلهم، وهاجر من بلادهم، فاراً بدينه، عابداً لله وحده !!
عوَّضه الله بذرية صالحة كثيرة، ورفعهم في عليين، حيث يقول سبحانه:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٤)

والمعنى: ﴿وَهَبْنَا﴾ لإبراهيم ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ابنان هديناهما مثله، مقتديان به، كما هدينا ﴿نُوحًا﴾ قبل ذلك، وهبنا له من الذرية كذلك ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ وكلهم من رسل الله وأنبيائه، جزاءً مِنَّا وإنعاماً، ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل هذا الجزاء الحسن بالذرية الصالحة المهتدية ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

أيضاً: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٨٥)
يعني: وهبنا له كذلك من الذرية ﴿زَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ﴾ وكلهم ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين آمنوا، وعبدوا الله وحده، وعملوا الصالحات.
أيضاً: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكَوْنًا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٨٦)
يعني: وهبنا له كذلك من الذرية ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا﴾ ولأنهم من المحسنين، ولأنهم من الصالحين فضَّلناهم ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

وزدناهم فضلاً على فضل، يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٨٧)
يعني: وأنعمنا على هؤلاء بما يلي: فضَّلنا كذلك أناساً ﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ على العالمين لإيمانهم، وعملهم الصالحات، ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ يعني: اصطفيناهم واخترناهم لرسالتنا من دون الناس أجمعين، ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام، دين الله الواحد إلى الناس كلهم في كل العصور.

ثم بيّن هذا الصراط المستقيم قائلاً:

﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٨)

يعني: ﴿ذَلِكَ﴾ الصراط المستقيم، وهو الإسلام، الذي دان به الأنبياء، وهدوا إليه: هو ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ أي: دين الله وهديه ونعمته ﴿يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ﴾ فضلاً، ويضل عنه مَن يشاء من عباده عدلاً.

﴿وَلَوْ﴾ افترضنا أن هؤلاء الرسل والأنبياء ﴿أَشْرَكُوا﴾ بالله تعالى غيره مع فضلهم، ورفع درجاتهم: ﴿لَحِطَ عَنْهُمْ﴾ وضاع منهم ثواب ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وهذا: رفع لمكانة التوحيد، وإعلاء شأن الإسلام، وحط وإهدار للشرك وأهله. ثم بيّن ربنا عز وجل نتيجة عدم الإيمان بهؤلاء الرسل والأنبياء، فقال تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ (٨٩)

يعني: هؤلاء الأنبياء والرسل الثمانية عشر المذكورون ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ﴾ من عندنا ﴿الْكِتَابَ﴾ الوحي المنزل ﴿وَالْحُكْمَ﴾ أي: الحكمة ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ وهي أعلى مراتب البشر، وأرقى درجات العبودية.

هؤلاء: يجب الإيمان بهم، واتباعهم فيما أوحى إليهم: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا﴾ أي: بنعمتنا عليهم، ووحينا إليهم ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ المعاندون المكذبون لك يا محمد، من أهل مكة أو غيرهم: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ وفَقْنَا للإيمان بها، وأعدنا للقيام بواجباتها ﴿قَوْمًا﴾ غيرهم كالمهاجرين والأنصار، ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ﴿لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ مثلهم، بل مستمرّون على الإيمان إلى يوم القيامة.

ثم بيّن ربنا أهل الهدى، الذين يجب الاقتداء بهم، فقال تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْدَمَ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٩٠)

يعني: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المذكورون من الأنبياء، وَمَنْ أَضِيفَ إِلَيْهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ، هُمُ ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾.

وعلى ذلك: فهم أهل الهدى، لا غيرهم، وطريقهم من التوحيد لله، والصبر على مشاق الدعوة: واجب الاتباع، لذلك يقول المولى: ﴿فِيهِدَهُمْ أَقْتَدَهُ﴾ أي: اتبع، ولا تخالف.

وبعد هذا التقرير والتوضيح لطريق السير الصحيح، يقول تبارك وتعالى لحبيبه: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل مكة وللکفار جميعاً ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على ما أبلغكم به ﴿أَجْرًا﴾ حتى تشكوا في إخلاصي.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: القرآن، والبلاغ به ﴿إِلَّا ذِكْرِي﴾ تذكرة، وموعظة، ليست لكم وحدكم، بل ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ من الجن والإنس، اليهود، والنصارى، والمسلمين، في كل زمان ومكان إلى يوم الدين. هؤلاء اليهود يقول عنهم ربنا تبارك وتعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾

والمعنى: ما عرف اليهود الله حق معرفته في الرحمة على عباده، حينما أنكروا بعثة الرسل، والوحي إليهم، وذلك ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾ وهو التوراة، فكان ﴿نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ في زمانكم، ولكنكم كنتم ﴿يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ﴾ أي: تكتبون ما فيه في أوراق مقطعة متفرقة، ﴿يُبَدُّونَهَا﴾ تظهرونها للناس على أنها التوراة، ولكنكم في الحقيقة ﴿تُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ من تعاليم التوراة التي لا تحبونها في هذه القراطيس، أي: الوريقات.

قل لهم يا محمد: وبهذه التوراة، ومن هذه التوراة، يا مَنْ تنكرونها، وتخفون كثيراً منها ﴿عَلَّمْتُمْ مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ من قبل مما خفي عنكم، والتبس عليكم، واختلفتم فيه.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد جوابًا على سؤالك لهم ﴿مَنْ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ فلم يجيبوا: ﴿اللَّهُ﴾ هو الذي أنزل الكتاب، الذي جاء به موسى، وكل كتاب جاء به نبي من الأنبياء كذلك.

وبعد هذه الأقوال لهم: ﴿ذَرَهُمْ﴾ اتركهم ﴿فِي خَوَاضِعِهِمْ﴾ أي: ضلالهم، وكفرهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾ ويسخرون، حتى يأتهم من الله اليقين.

وعندها يعلمون: لمن العاقبة لهم أو لعباد الله المتقين؟

فالله سبحانه وتعالى: هو الذي أنزل التوراة، وهو الذي أنزل كل كتاب إلى نبي من الأنبياء.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٩٢)

معنى الآية: ﴿وَهَذَا﴾ القرآن كذلك ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ على محمد ﷺ لهذه الأغراض: ﴿مُبَارَكٌ﴾ للبركة به، من حيث كثرة فوائده، ومنافعه، و﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب، فهو يؤيد ويصدق ما فيها من التوحيد، وأصول الإسلام، قبل تحريفها، وتبديل ما فيها، ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: وللإنذار والتخويف من عذاب الله لمن كفر وعصى، من أهل ﴿أُمَّ الْقُرَى﴾ وهي مكة، وكل من كان حولها من أهل الدنيا جميعًا.

هذا: ومن المعلوم أن ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ويخافون منها، ويستعدون لها ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وبالحق الذي فيه، وهؤلاء ﴿هُمْ﴾ الذين ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾. وبعد تقرير هذا عن القرآن، يحدثنا ربنا جل وعلا عن الظالمين، فيقول جل وعلا:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٩٣)

وَأَنْتُمْ فِي هَذِهِ الْحَالِ: أَحُوجُ مَا تَكُونُونَ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ !! بَلْ أَنْتُمْ فِي أَمَسِّ الْحَاجَةِ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ عَنْكُمْ ﴿و﴾ لَكِنَّا لَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ﴿ل﴾ لِلَّهِ تَعَالَىٰ.

أين هم الآن؟ ﴿لَقَدْ﴾ تشتت جمعكم و﴿تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ وصلكم، ﴿وَضَلَّ﴾ وضاع وبطل ﴿عَنْكُمْ﴾ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿أنه ينفعكم، ويشفع لكم، وينجيكم من هؤلاء الشركاء.﴾

الآيات السابقة كانت في إثبات وتقرير توحيد الله تعالى، والنبوة، والآيات تبدأ الآيات في إثبات وتقرير دلائل كمال قدرة الله، وعلمه وحكمته سبحانه، إذ يقول رب العزة:

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (٩٥)

والمعنى: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه هو ﴿فَالِقُ الْحَبِّ﴾ أي: الذي يشق الحبة اليابسة كحبة القمح، فيخرج منها ورقاً أخضر ﴿وَالنَّوَىٰ﴾ أي: الذي يشق اليابسة، مثل نواة المشمش، فيخرج منها شجراً صاعداً في الهواء.

وهو سبحانه الذي ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ﴾ كالإنسان ﴿مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كالنطفة، والعكس كذلك، حيث إنه هو لا غيره ﴿مُخْرِجُ الْمَيِّتِ﴾ كالنطفة ﴿مِنَ الْحَيِّ﴾ الإنسان، ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ﴾ المحيي المميت، الذي له كمال قدرة الواحد، الذي لا يستحق العبادة غيره، ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تصرفون عن توحيد، والإيمان به؟
كما أنه سبحانه:

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٩٦)

يعني: ومن كمال قدرته كذلك أنه ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ أي: الذي يشق بنور الصبح ظلمة الليل، وهو سبحانه الذي ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ تسكن الخلائق فيه، وتستريح من التعب في النهار، وهو سبحانه - كذلك - الذي جعل ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ أي: حساباً للأوقات؛ حيث إنهما يجريان بحسبان، أي: بحساب دقيق.

﴿ذَٰلِكَ﴾ كله ﴿تَقْدِيرُ﴾ أي: خلق وتخطيط وتنفيذ ﴿الْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿الْعَلِيمِ﴾ بخلقه. ويقول أيضاً:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النَّجْمَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٩٧)

يعني: ومن كمال قدرته، ودلائل وحدانيته أنه سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ﴾ أي: خلق ﴿لَكُمُ النَّجْمَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ أي: في أسفاركم في البر والبحر، وفي ظلمات الليل، وفي جميع منافعكم خلال ظلماتهما. وبهذا وغيره ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ وبيّنا ووضحنا ﴿الْآيَاتِ﴾ الدالة على كمال قدرته ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يدركون ذلك ويفهمونه، فيؤمنون. ويقول أيضا:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (٩٨)

يعني: ومن كمال قدرته كذلك، أنه ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ أي: خلقكم ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هي نفس آدم عليه السلام، ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي: فلکم مستقر في رحم الأمهات، ومستودع في ظهور الآباء، أو: فلکم مستقر فوق الأرض وأنتم أحياء، ومستودع تحتها وأنتم أموات، وبهذا وغيره ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ وبيّنا ووضحنا ﴿الْآيَاتِ﴾ الدالة على كمال قدرته ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ يدققون النظر، ويعملون الفكر، يفهمون، ويؤمنون. ويقول أيضا:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرَجُ مِنْهُ حَبًّا مَرَّاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٩٩)

يعني: ومن كمال قدرته سبحانه، أنه ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: من السحاب مطرًا، ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي: بالماء ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فالماء واحد، والنبات مختلف الأصناف والألوان والطعم ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ أي: من النبات ﴿خَضِرًا﴾ يعني: أخضر اللون ﴿نُخْرَجُ مِنْهُ﴾ أي: من النبات الأخضر اللون ﴿حَبًّا مَرَّاكِبًا﴾ مثل السنبلة الذي تراكب وتراض حبه، ومن كمال قدرته: أنه يخرج بالماء

﴿مِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا﴾ وهو أول ما يخرج منها ﴿قِنَوَانٌ﴾ وهي: العذق الذي يحمل التمر ﴿دَانِيَةً﴾ أي: قريبة التناول، سهلة المأخذ، ومن كمال قدرته: أنه يخرج بالماء ﴿جَنَّتْ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُشْتَبِهًا وَعَيْرَ مُتَشَبِهٍ﴾ أي: أن الزيتون والرمان، بعضه متشابه وبعضه غير متشابه في اللون والطعم والقدر، وكله يخرج بماء المطر.

﴿أَنْظُرُوا﴾ أيها الناس لتعبروا، وتعرفوا قدرة الله ﴿إِلَى ثَمَرِهِ﴾ أي: النبات ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ حين يخرج هذا الثمر ضعيفاً لا طعم له، ﴿وَيَنْعَمَ﴾ نضجه، وكيف تغير حانه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ﴾ أي: هذه المشاهد والمخلوقات الإلهية: ﴿لَآيَاتٍ﴾ دالة على كمال قدرته سبحانه ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله تعالى، ووحدانيته. فهل آمنوا؟ يقول الله تعالى:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾

بعد أن من الله على هؤلاء الكفار بإيجادهم، وخلق ما يحتاجون إليه في معاشهم، بيّن معاملتهم لخالقهم سبحانه:

والمعنى: أن هؤلاء الكفار ﴿جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ أطاعوا الشياطين، وجعلوهم شركاء لله، ولكن: كيف يكون هذا، وهو الذي ﴿خَلَقَهُمْ﴾ وهل يُعَقَّلُ أن يكون المخلوق معبوداً؟ كما أن هؤلاء الكفار ﴿خَرَقُوا لَهُ﴾ أي: اختلقوا ونسبوا كذباً له تعالى ﴿بَنِينَ﴾ كالذين قالوا المسيح ابن الله، ﴿وَبَنَاتٍ﴾ كالذين قالوا الملائكة بنات الله.

وهؤلاء وهؤلاء: قالوا ما قالوا ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: جاهلين بما قالوا. ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ تنزه الله، وتقدس، وتعالى عما يصفونه، بهذا الوصف الآثم أو ذاك. حيث إنه تعالى:

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

أي: هذا الإله الواحد، الذي أخطؤوا في حقه، هو ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي:

خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق، هذا الإله الواحد لا يمكن أن يكون له ولد لهذه الأسباب:

الأول: ﴿أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ كيف يكون له ولد، والولادة من صفات البشر، ومخترع البشر لا يكون بشراً، فلا يمكن إذاً أن يكون له ولد.

الثاني: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ أي: لم تكن له زوجة، فلا يمكن إذاً أن يكون له ولد.

الثالث: أنه ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ولا يناسبه ولا يماثله شيء من خلقه، فلا يمكن إذاً أن يكون له ولد.

الرابع: ﴿وَهُوَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَالِمٌ﴾ أي: ما من شيء خلقه إلا وهو عليم به، وبمصالحه، غير محتاج إليه، بل غني عن كل شيء، فلا يحتاج إلى الولد، فلا يمكن إذاً أن يكون له ولد. إنما هذا الإله هو:

﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١٠٢)

يعني: الموصوف بكل ما سبق من صفات القدرة والعلم والوحدانية هو ﴿اللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ الذي أنشأكم ورعاكم ورباكم حتى صرتم إلى ما أنتم فيه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الذي خلق كل شيء في الماضي، والذي يستحق العبادة وحده، وهو ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ في الحاضر والمستقبل، والذي يستحق العبادة وحده، وما دام هذا الإله بهذه الأوصاف ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ ولا تعبدوا غيره.

كما أنه سبحانه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: حفيظ ورقيب على كل شيء من الأرزاق والآجال والأعمال. إضافة إلى أنه سبحانه:

﴿لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٠٣)

والمعنى: لا تحيط به أبصار المخلوقين، وهو يحيط بهم علماً وقدرة، ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ بأوليائه، والعالم بدقائق الأمور ﴿الْخَبِيرُ﴾ بهم، والعليم بظواهر الأشياء وخفاياها. ثم يقول ربنا على لسان محمد ﷺ، وهو يقول لقومه:

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (١٠٤)

يعني: قل يا محمد لهؤلاء المعاندين ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ﴾ أي: دلائل - بعضها يُرى بالعين الباصرة، وبعضها بالبصيرة - على وحدانية الله، وقدرته، وضرورة الإيمان به، ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ هذه الدلائل منكم، ففهمها وانتفع بها، فآمن ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ ثواب ذلك، ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ عنها منكم، وضل، ولم يؤمن ﴿فَعَلَيْهَا﴾ أي: على نفسه، وبالضلاله، وضرر عناده، وكل منكم له اختبار به وحرثه، في الضلال والهداية. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أراقب أعمالكم، أو أجازيكم عليها، إنما أنا مُبَلِّغ ونذير.

﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُدْرِسُونَ﴾ (١٠٥)

يعني: وهكذا فعلنا ﴿نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ نكررها، ونؤكدها، ونوضحها؛ حالاً بعد حال، ولوناً بعد لون، لماذا؟
أولاً: ليعتبروا، فيؤمنوا.
ثانياً: ليقول بعضهم ﴿دَرَسْتُ﴾ كُتِبَ أهل الكتاب، ونقلت ذلك منها؛ فيزداد كفراً على كفر.

ثالثاً: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أنه الحق؛ فيزدادوا إيماناً على إيمانهم.

ثم يتوجه رب العزة بالخطاب إلى محمد يثبت به، ويوضح له منهج الحق في الدعوة وطريق الصواب، حيث يقول جل وعلا:

﴿تَبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٦)

يعني: اتبع يا محمد ﴿مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: في القرآن والكلام - كذلك - لكل مَنْ اتبعه ﷺ، حالة كونك ثابتاً مداوماً على توحيد الله، الذي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وفي الوقت ذاته ﴿أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا تتأثر بهم، ولا تهتم بأقوالهم، ولا تلتفت إلى رأيهم. هؤلاء المشركون يقول عنهم سبحانه:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١٠٧)
 أي: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ عدم إشراكهم ﴿مَا أَشْرَكُوا﴾ ولكنه علم منهم اختيار الشرك، فشاء لهم ذلك، فأشركوا، فلا تتأثر بهم، ولا تهتم بأقوالهم، ولا تلتفت إلى رأيهم.
 ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ مراقباً لهم، فتواخذ بجرائمهم.
 ﴿وَمَا أَنْتَ﴾ كذلك ﴿عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ تقوم بأمورهم، وتدبر مصالحهم، وتجبرهم على الإيمان.

روي أنه لما نزل قوله تعالى في حق الكفار ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قال المشركون: يا محمد لتنتهين عن سب آلهتنا، أو: لتنهجون ربك، فنهاهم الله عن أن يسبوا أوثان الكفار، حتى لا يسبوا الله عدواً بغير علم، وذلك في هذه الآية:

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٠٨)

يعني: ﴿وَلَا تَسُبُّوا﴾ أيها المؤمنون: المشركين ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: الذين يعبدون غير الله، أي: الأصنام وأشباهاها من الكواكب وغيرها، حتى وإن كان سب آلهتهم فيه تحقير لها!! لئلا يكون ذلك سبباً لسب الله، تعالى الله عن ذلك، ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا﴾ أي: ظلماً وعدواناً ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: على جهالة بالله، وبما يجب له من التعظيم، وذكر كل كمال يليق به سبحانه، ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل تزوين عبادة الأصنام للمشركين، ﴿زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾ من الخير والشر، والإيمان والضلال، فأتوه وعملوه وأحبوه، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ﴾ في الآخرة، ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ويجازيهم عليه. هؤلاء المشركون يقول عنهم ربنا عز وجل:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠٩)

معنى الآية: أن هؤلاء الكفار ﴿أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾ أي: غاية اجتهادهم في القسم وتأكيدهم له.

على ماذا أقسموا؟ أقسموا ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ مما اقترحوا على النبي ﷺ أن يأتيهم بها ليؤمنوا ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ إذا جاءتهم.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ﴾ التي تقترحونها، وغيرها ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ ينزلها كما يشاء، وإنما أنا فقط نذير مبين، ولكن: ماذا لو جاءتهم الآيات، بل لماذا لا تأتيهم؟ يقول الله بياناً لما سيكون ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ أي: وما يدريكم بإيمانهم إذا جاءت، يعني: أنتم لا تدرون ذلك، ولا تعرفونه؛ لأنه غيب، والغيب عند الله، والحقيقة ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ثم بيّن ربنا تبارك وتعالى - لِمَ لا يؤمنون بقوله:

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١٠)

يعني: هؤلاء لا يؤمنون، حتى ولو جاءتهم الآيات؛ لأننا ﴿نُقَلِّبُ﴾ نحول قلوبهم عن الحق فلا يفهمونه، وعن الهدى فلا يتبعونه، ونقلب كذلك ﴿أَفْئِدَتَهُمْ﴾ عنه، فلا يؤمنون به، وليس عدم إيمانهم ببعيد ولا بغريب، فسيكون في هذه الحال ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ عندما نزلت آياتنا أولاً، فكذلك: لن يؤمنوا به إذا جاءت الآيات الآن، ولذلك ﴿نَذَرُهُمْ﴾ نتركهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ في ظلمهم لأنفسهم وبعدهم عن الحق ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون، ويتحيرون، عدلاً من الله تعالى، على اختيارهم الضلال على الهدى، والكفر على الإيمان.

لما أقسم الكافرون - فيما سبق - ﴿جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ مما اقترحوا ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩] وهذا كذب منهم، بدليل أنهم لم يؤمنوا من قبل.

لذلك يرد رب العزة، ويكشف زيف ادعاءاتهم هذه بقوله:

﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَنَّا إِلَهُنَّ الْمَلَائِكَةُ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْقُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (١١١)

يعني: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا﴾ استجبنا لهم، و﴿نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ﴾ كما اقترحوا في قولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْنَا الْمَلَكِيَّةَ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

وكذلك ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْقُ﴾ كما اقترحوا في قولهم: ﴿فَأَتَوْا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الدخان: ٣٦].

وأيضاً ﴿وَحَشَرْنَا﴾ جمعنا ﴿عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبَلًا﴾ أي: فوجاً بعد فوج، يشهدون بنبوتنا، وصحة ما بشرنا به وأنذرنا، لو فعلنا كل ذلك: ﴿مَا كَانُوا﴾ أهلاً للإيمان حتى يؤمنوا، ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إيمانهم فيؤمنون، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ إنهم لا يؤمنون، إلا بمشيئة الله.

ثم يبين رب العزة - تخفيفاً عن حبيبه، مؤانسةً له - أنَّ العداء لرسول الله ليس خاصاً به، حيث يقول عز وجل:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (١١٢)

والمعنى: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: وكما جعلنا لك أعداء من المشركين ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ ممن سبقوك ﴿عَدُوًّا﴾، وذلك: ابتلاء، وإظهاراً لفضيلة الثبات، وتحصيلاً للأجر والثواب، لذلك: ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ أي: ﴿شَيَاطِينَ﴾ من الإنس، وشياطين من الجن، والشيطان كل عاتٍ متمردٍ من الإنس والجن، هؤلاء الشياطين ﴿يُوحِي﴾ أي: يوسوس ﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، ماذا يوسوسون؟ ﴿زُخْرَفَ الْقَوْلِ﴾ أي: الكلام المزين والمخلوط بالباطل والأكاذيب، ولكن: لماذا يوسوسون؟ ﴿غُرُورًا﴾ أي: ليغروهم، ويغدروا بهم، ويضلُّونهم عن الحق والصواب.

واعلم أن هذا الإيحاء بالباطل بين الجن والإنس: لا يتم إلا بمشيئة الله، إذ ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾، لذلك: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ اتركهم وما يختلقونه عليك من الأكاذيب، ومن المعلوم أن هذه الآية وأمثالها في السور المكية كانت قبل الأمر بقتال المشركين.

اعلم أن هذا الإيحاء بزخرف القول بين شياطين الإنس والجن كان لأربعة أغراض: أحدهما: لإغراء الكافرين بالباطل، كما في الآية الفاتحة. والباقي في قوله تعالى:

﴿وَلِصَّغَىٰ إِلَيْهِ أَفْعَدُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِإِقْرَافِهِمَا مَا هُمْ مُقَرَّرُونَ﴾ ﴿١١٣﴾

في هذه الآية الكريمة: ذكر لباقي أهداف الوسوسة بالباطل، وهي على النحو التالي، بعد ذكر الأول في الآية السابقة:

الثاني: ﴿وَلِصَّغَىٰ إِلَيْهِ أَفْعَدُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: لتميل إليه قلوب هؤلاء.

الثالث: ﴿وَلِإِرْصَوِّهِ﴾ أي: يستريحون إليه، ويؤمنون بما فيه.

الرابع: ﴿وَلِإِقْرَافِهِمَا مَا هُمْ مُقَرَّرُونَ﴾ أي: ليفعلوا ما يريدون من المعاصي والآثام. ويلاحظ: أن ترتيب هذه الأغراض في الآية جاء على غاية الفصاحة؛ لأنه أولاً:

يكون الخداع بـ ﴿يُوحَىٰ﴾ [الأنعام: ١١٢]، فيكون الميل ﴿وَلِصَّغَىٰ﴾، فيكون الرضى ﴿وَلِإِرْصَوِّهِ﴾، فيكون الفعل ﴿وَلِإِقْرَافِهِمَا﴾.

نذلك: فليحذر المسلم من هذا الخداع، حتى لا يحدث ما يليه.

طلب الكفار من النبي ﷺ يوماً أن يجعل بينه وبينهم حكماً من أhabar اليهود، أو أساقفة النصارى؛ ليخبرهم بما في كتابهم من أمر نبوته ﷺ، فأنزله الله تعالى:

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿١١٤﴾

والمعنى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ قل يا محمد لهؤلاء الكفار: أطلب حاكماً بيني وبينكم غير الله سبحانه وتعالى، ليفصل ويبيِّن المَحَقَّ مِنَّا من المَبْطَل؟ كيف يحدث هذا؟ مع أن الله ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن ﴿مُفَصَّلًا﴾ موصَّحاً فيه الحق من الباطل.

كما أن المنصفين من ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ كالنوراة، والإنجيل ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ويعترفون، كعبد الله بن سلام وأمثاله ﴿أَنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿مُنْزَلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾، لذلك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ أيها السامع ﴿مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين.

وبعد أن بيّن ربنا كمال القرآن بإضافة إنزاله إلى الله، يبيّن سبحانه كمال هذا القرآن - كذلك - من حيث ذاته، فيقول جل جلاله:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝١١٥﴾

والمعنى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: بلغت الغاية في الكمال والتمام، من حيث ما أخبر به ربنا، وأمر به، ونهى عنه من الأحكام والشرائع، ﴿صِدْقًا﴾ في أخباره ﴿وَعَدْلًا﴾ في أحكامه.

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ بتحريف، أو زيادة، أو نقص؛ مصداقاً لقوله تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقال ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يفعل، فيجازي على القول وعلى الفعل. ثم يبيّن ربنا - تبارك وتعالى - موقف المسلم من اقتراحات الكافرين، ومن وساوس الشياطين؛ حيث يقول:

﴿وَإِنْ تَطَعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝١١٦﴾

والمعنى: لا تطع الكافرين في اقتراحاتهم، ولا الشياطين في وساوسهم، خاصة وأنهم أكثر من في الأرض، حيث إنك إن تطعهم ﴿يُضِلُّوكَ﴾ ويبعدوك ويفتنوك ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذي هو دينه.

هؤلاء: ليسوا على علم، ولا عقل، وإن ادعوا ذلك، وهم ﴿يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ فيما هم فيه، وما هم كذلك ﴿إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يكذبون فيما يقولون، فلا تطعهم، ولا تصدّقهم، ولا تتبعهم.

بل: أطع ربك، وصدّق نبيّك، واتبع قرآنك، حيث:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝١١٧﴾

والمعنى: أن الله لا تفيد عنده الدعاوى الكاذبة، حيث إنه أعلم بمن يضل عن سبيله، ويختار الضلال، وهو أعلم بالمهتدين، الذين اختاروا الهداية ففهم لذلك.

ولمّا نهى الله عز وجل عن اتباع المضلّين، الذين كان من إضلالهم: تحريم الحلال، وتحليل الحرام، قال:

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ (١١٨)

أي: لا تتبعوا الكفار يا مسلمون، و﴿كُلُوا﴾ حلالاً لكم ﴿مِمَّا﴾ ذبح، و﴿ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عند ذبحه، ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ وبأحكامه مصدقين وملتزمين. ثم قال:

﴿وَمَا لَكُمْ إِلَّا أَنْ تَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ (١١٩)

يعني: وما الذي يمنعكم أن ﴿تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ من الذبائح، خاصة: وأن الله تعالى ﴿قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ﴾ في كتابه ﴿مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ وذلك في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ الآية [المائدة: ٣] ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ من هذا المحرّم، فهو حلال لكم.

وهذا الذي ذكر اسم الله عليه ليس من هذا الذي حرم عليكم، واعلموا: أن ﴿كَثِيرًا﴾ من الناس ﴿لَيُضِلُّونَ﴾ فيحرمون ويحلّلون ﴿بِأَهْوَاءِهِمْ﴾ وشهاداتهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بالشريعة، وهذا منهم عدوان على أحكام الله.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ هؤلاء، فيعاقبهم أشد أنواع العقاب.

ثم يهدّد الله تعالى الذين يضلون بأهوائهم، فيرتكبون المعاصي، بقوله عز وجل:

﴿وَذَرُوا ظَهَرَ الْآثِمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ (١٢٠)

أي: اتركوا الإثم كله، ظاهره وباطنه، والمعاصي كلها، صغيرها وكبيرها، ومن المعاصي: تحليل الحرام، وتحريم الحلال.

حيث ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ﴾ ويقتربونه ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ في الآخرة إن لم يتوبوا عن معاصيهم جزاء سيئاً، والسبب ﴿بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾.

وإذا كان الله قد أباح أكل ما ذبح وذكر اسم الله عليه، فإنه ينهى عن أكل ما ذبح ولم يذكر اسم الله عليه، بقوله سبحانه:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَؤُحُونَ
إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجْدِلُوَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (١٢١)
المعنى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا﴾ يا مسلمون ﴿مِمَّا﴾ مات أو ذبح و ﴿لَمْ يُذَكَّرْ أَسْمُ
اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ خروج عن طاعة الله، لو أكلتموه.

وفي هذا الموضوع ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ﴾ من الجن ﴿لِيَؤُحُونَ﴾ أي: ليوسوسون ﴿إِلَىٰ
أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ من الإنس ﴿لِيُجْدِلُوَكُمْ﴾ ويناقشوكم في أكل الميتة ليقنعوكم، فتطيعونهم
في أكلها.

﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في ذلك ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ مثلهم، حيث إن من اتبع غير الله
في دينه، ورضي بشرع غير شرعه فقد أشرك.

ثم يضرب الله مثلاً للمؤمن الذي أحيا الله قلبه بالإيمان، والكافر الغارق في الظلمات،
فيقول جل جلاله:

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي
الْظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢٢)
والمعنى: هل يستوي ﴿مَنْ كَانَ مَيِّتًا﴾ أي: من كان كافراً ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بالإيمان،
﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾ أي: يقيناً كالنور ﴿يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ أمناً من جهتهم،
لا خوف من أحد غير الله، هل يستوي هذا مع ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ يتخبط
فيها ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ لا يفارقها، لا يستويان.
﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما زَيَّنَ الله للمؤمن الإيمان ﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ﴾ من الآثام والمعاصي والكفر.

وبعد أن بيّن ربنا أن الكافرين هم أصحاب المعاصي، بيّن عز وجل أن هؤلاء الكافرين
هم أكابر المجرمين في كل قرية ومكان، في قوله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا
بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢٣)

والمعنى: وكما جعلنا فساق مكة وكفارها، أي: أكابرها ورؤساءها جعلنا في كل قرية مجرميها وفساقها أكابر، وكان ذلك: ﴿لِيَمَكُرُوا فِيهَا﴾ أي: في كل قرية هم فيها، وذلك بالتجبر على الناس، وإيذائهم، والعمل بالمعاصي.

ولكنهم ﴿وَمَا يَمَكُرُونَ﴾ بهذا الشكل، وعلى هذا النحو ﴿إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ فقط، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن ضررهم هذا يحق ويحيط بهم وحدهم. ثم قال تعالى:

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتِيَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمَكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

قال الوليد بن المغيرة للنبي ﷺ ذات يوم: لو كانت النبوة حقًا لكنت أنا أولى بها منك؛ لأنني أكبر منك سنًا، وأكثر منك مالًا، فأنزل الله هذه الآية.

والمعنى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ أي: أهل مكة الكفار ﴿آيَةٌ﴾ تدل على صدق النبي ﷺ ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ﴾ به ﴿حَتَّى تُؤْتِيَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ من النبوة لنا وفيها، والوحي إلينا، وذلك: حسدًا منهم للنبي ﷺ.

وكان الجواب: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أي: يعلم الموضع الصالح، والمرء الصالح لوضعها فيه، فيضعها، وهؤلاء ليسوا أهلًا لها.

والأمر لا ينتهي عند ذلك، بل ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ بهذا القول ﴿صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ذل عند الله والناس في الدنيا ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة ﴿بِمَا كَانُوا يَمَكُرُونَ﴾.

وبعد أن قرّر الله تعالى: أن الهدى من الله، وأن الضلال من الله، يذكر الله عز وجل علامة من يريد هدايته، وعلامة من يريد ضلاله، وذلك في قوله تعالى:

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

والمعنى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ للإيمان يهديه، وعلامة ذلك: أن ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ أي: يوسّع قلبه لقبول الإيمان، وينور بصيرته لعمل الخير.

وأما ﴿مَنْ يُرِدْ﴾ الله ﴿أَنْ يُضِلَّهُ﴾ عن الإيمان يضلّه، وعلامة ذلك: أن ﴿يَجْعَلَ صِدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا﴾ لا يقبل الإيمان، بل يختنق به، ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ كمن يصعد في السماء، حتى يصل إلى درجة الاختناق.
وهكذا: ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ﴾ أي: العذاب ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.
ثم يقول الله تعالى:

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾
يعني: هذا الدين، أو هذا القرآن هو ﴿صِرَاطُ رَبِّكَ﴾ أي: طريقه وهديه ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ لا عوج فيه.
﴿قَدْ فَضَّلْنَا﴾ فيه ﴿الْآيَاتِ﴾ والدلائل ﴿لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ يتعظون وينتفعون بما فيه. هؤلاء القوم:

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُمْ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾
والمراد: لهؤلاء الذين يذكرون فينتفعون بما في القرآن ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ وهي الجنة، التي لا ينقطع سلامها ولا سلامتها، ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ مُعَدَّةٌ مهيأة عنده، مضمونة منه.

﴿وَهُمْ وَلِيُّهُمْ﴾ أي: محبّهم، وناصرهم على أعدائهم، ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: يجازيهم في الآخرة بالنجاة والفوز؛ بسبب أعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا، هذا عن الصالحين، فماذا عن شياطين الإنس والجن؟ يقول ربنا عز وجل:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنِّ قَدْ أَسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَلْجُنَّ الَّذِي أَجَلَتْ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

يعني: ﴿وَيَوْمَ﴾ القيامة ﴿يُحْشَرُهُمْ﴾ الله، أي: الإنس والجن ﴿جَمِيعًا﴾.
وهذا الخطاب التوبيخي لعصاة الجن، يُقال لهم: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنِّ قَدْ أَسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ باغوائكم لهم، وإضلالكم إياهم، وجعلهم تابعين لكم.
ومع أن الكلام مع شياطين الجن!! والردّ مُتَوَقَّعٌ ومطلوب منهم!! إلا أنهم لا يتكلمون،

بَلْ ﴿وَقَالَ أَوْلِيَائُهُمُ﴾ الذين أطاعوهم، وخدعوا بوسوستهم ﴿مِّنَ الْإِنسِ﴾ معترفين بما حدث: ﴿رَبَّنَا أَسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ زينوا لنا الشهوات فاستمتعنا بها، واستمتعوا بطاعتنا لهم في إغوائهم لنا، ثم قالوا متحسرين ﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ أي: يوم القيامة للحساب والعقاب.

ويكون الحُكْمُ العادل، يقول الله تعالى لهم: ﴿النَّارُ مَثْوًى لَّكُمْ﴾ منزلكم ومأواكم، ودار إقامتكم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبداً ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ لمن علم سبحانه أنهم يؤمنون، فهو لاء: لا يدخلونها أصلاً، أو يدخلونها فترة ثم يخرجون منها، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ فيما يفعل بأعدائه وأوليائه ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

هكذا تمتع الإنس بالجن، والجن بالإنس:

﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِبَعْضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٢٩)

وهكذا كما تمتعنا الإنس بالجن، والجن بالإنس ﴿نُؤَيِّ بِبَعْضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ أي: نسلط بعضهم على بعض ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من المعاصي والآثام. وبعد أن وثق الله معشر الجن، فيما سبق؛ لإغرائهم الإنس يوثق عز وجل الجن والإنس معاً؛ لضلالهم في أنفسهم، فيقول جل جلاله:

﴿يَمَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُذَرِّوْنَكُمُ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (١٣٠)

يعني: يوم القيامة يقال من باب التوبيخ ﴿يَمَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ﴾ أي: نذر ﴿مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي﴾ يقرؤون كتبتي، ثم يوضحونها ويبينون ما فيها من آيات التوحيد والتشريع؟ وكذلك ﴿يُذَرِّوْنَكُمُ﴾ أي: يخوفونكم ﴿لِقَاءَ﴾ ربكم، في ﴿يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ وهو يوم القيامة؟ ﴿قَالُوا﴾ أي: الجن والإنس في الجواب على هذا السؤال التوبيخي لهم: ﴿شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ أنه قد أتتنا الرسل، وبلغونا، وخوفونا، ولكنا كنا عن هذا غافلين، وللحق معاندين.

وهكذا ﴿غَرَّبْنَاهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ بزخرفها وبريقها فلم يؤمنوا، ﴿وَشَهِدُوا﴾ اليوم ﴿عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

ولماذا كان إرسال الرسل، وقراءة الآيات منهم على أقوامهم؟

﴿ذَلِكَ أَنْ لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَفْلُونَ﴾ (١٣١)

يعني: كان إرسال الرسل من الله؛ لأن ربنا تعالى لا يهلك البلاد، بسبب ظلمهم ﴿وَأَهْلُهَا غَفْلُونَ﴾ لا يعرفون الحق عن طريق الرسل، بل لابد من إرسال الرسل إليهم، يعلمونهم، وينذرونهم، فإن آمنوا أثابهم الله، وإن كفروا عذبهم الله.

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ﴾ (١٣٢)

أي: ﴿وَلِكُلِّ﴾ واحد من الفريقين الطائعين والعصاة، سواء من الإنس أو الجن ﴿دَرَجَةٌ﴾ مراتب ومنازل، بسبب ﴿مِمَّا عَمِلُوا﴾ من خير أو شر. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ﴾ أي: بساء عما يعمل هؤلاء أو هؤلاء، وفي ذلك وعد بالخير للطائعين، ووعيد بالشر للعاصين.

وإرسال الرسل من الله تعالى رحمة:

﴿وَرَبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ﴾ (١٣٣)

يعني: ﴿وَرَبُّكَ﴾ أيها الإنسان ﴿الْغَفِيُّ﴾ عنك، وعن عبادتك ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ على خلقه، بإرسال الرسل، وإيصال المنافع إليهم.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الكفار، بإهلاككم واستئصالكم دفعة واحدة؛ لأنكم عاندتم وكفرتم، ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ﴾ من الخلق ﴿مَا يَشَاءُ﴾ ممن لا يعاندون ولا يكفرون، فلا تستغربوا ذلك أو تستبعدوه، فقد حدث قبلاً، ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ﴾ أنتم ﴿مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ﴾ أذهبهم الله، وأبقاكم. على كل حال:

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (١٣٤)

لما قالوا: من مات فقد فات.

قال تعالى: لا، بل ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ من البعث والحساب والعذاب ﴿لَآتٍ﴾ لا محالة ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ لنا، أو هاربين منا، بل سنحشركم ونحاسبكم ونجازيكم. ويا محمد:

﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٣٥)

يعني: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المعاندين الكافرين ﴿يَقَوْمِ اعْمَلُوا﴾ ما شئتم ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على راحتكم وما تحبون، وكيفما تريدون من الكفر والعصيان، وهذا ظلم، وأما أنا فـ ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على راحتي، وما أحب، وكيفما أريد من الإيمان والطاعة، وهذا عدل.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أنتم وأنا، في نهاية الأمر ﴿مَن تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ﴾ ونتيجة حسنى، في ﴿الدَّارِ﴾ الآخرة أنحن أو أنتم؟ ولكن حسب هذه القاعدة الإلهية، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لا ينجو ولا يسعد الظالمون الكافرون، وقد ظلمتم وكفرتم.

ولمَّا بَيَّنَّ ربنا قبح طريقتهم في إنكار البعث، عقب ذلك بذكر أنواع من أحكامهم الفاسدة تنبهاً على ضعف عقولهم، حيث قال تعالى:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١٣٦)

والمعنى: أن الكفار قَسَمُوا ما ﴿ذَرَأَ﴾ الله من الزرع والأنعام، أي: ما خلق إلى قسمين: قسم جعلوه لله يصرفونه على الضيوف والمساكين، وقسم لأصنامهم يصرفونه على خدمتها، وهذا من اختراعهم وكذبهم؛ لأن الله لم يأمر بذلك ولم يشرعه.

ولكن الأمر الأعجب أنهم كانوا عند الإنفاق لِمَا خلق الله، وأنعم عليهم يفرقون بين ما لله وما لأصنامهم.

فما كان من نصيب أصنامهم: لا يصل منه شيء أبداً لله تعالى، بل يحصوه، ويعُدُّوه، ويحفظوه لأصنامهم بغاية العناية، أما ما كان لله ﴿فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ أصنامهم، ويحرمون منه الضيوف والمساكين.

حقاً: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ يعني: بشس الحكم حكمهم، وساء الفعل فعلهم.

وكما زينت الشياطين لهؤلاء الكفار هذا التقسيم الكاذب - كما أشارت الآية السابقة - زينت لهم الشياطين قتل أولادهم خشية الفقر، يقول الله سبحانه:

﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْذُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (١٣٧)

يعني: وكما زين ﴿لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ شركاؤهم من الشياطين تقسيم ما خلق الله: بين المولى عز وجل، وأصنامهم كذباً وزوراً وبهتاناً، زينوا لهم ﴿قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ﴾ خوفاً من الفقر، ووأد البنات خوفاً من العار؛ ﴿لِيُرْذُوهُمْ﴾ ليهلكوهم ويفنوهم عن طريق إهلاك نسلهم، ﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أي: ليخلطوا، ويدخلوا الشك عليهم في دينهم الذي كانوا عليه، وهو دين إسماعيل عليه السلام.

على أية حال: هذا لا يتم منهم إلا بمشيئة الله، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ ولذلك: علم سبحانه أنهم يحبونه، فشاء لهم ذلك ففعلوه.

ولذلك: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ يعني: اتركهم يا محمد وما يختلقونه، فإن ضرر ذلك عائد عليهم لا عليك.

وأنت أيها المسلم ابتعد عنهم وعن سلوكهم، واحمد الله على الهدى الذي أنعم الله عليك به.

وأيضاً كما أخطؤوا في قتل أولادهم: أخطؤوا كذلك في التحريم والتحليل من عند أنفسهم بالنسبة للزروع والأنعام، يقول الله تعالى:

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمٌ وَحَرَّتْ حَجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَّشَاءَ يَرْعِيهِمْ وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ طُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (١٣٨)

يعني: هؤلاء الكفار شرعوا لأنفسهم وبأنفسهم تشريعات ما أنزل الله بها من سلطان، حيث زعموا ونسبوا - ما زعموه - كذباً وافتراءً على الله.

أن هناك أنعاماً يعني: إبلًا، وأبقارًا، وأغنامًا، ومزروعات ﴿حَجْرٌ﴾ أي: حرام ﴿لَا يَطْعَمُهَا﴾ أي: لا يطعمها أكلاً، ولا يستعملها ركوباً إلا من شاءوا هم له ذلك، وأن

هناك أنعامًا: ﴿حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ على الركوب، مطلقًا، وأن هناك - كذلك - أنعامًا: ﴿لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ لا عند الركوب، ولا عند حلبها، ولا.. في أية حال من أحوالها.

هؤلاء ﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾ الله سوءًا ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعُرُونَ﴾ من تقسيماتهم هذه، ونسبها زوراً إلى الله تعالى.

ثم يذكر المولى سبحانه نوعاً آخر من نتائج كفرهم، فيقول جل جلاله:

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِّتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (١٣٩)

أي: قال الكفار ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ﴾ التي حرّموها من عند أنفسهم ونسبوا ذلك لله، فكذبهم الله بقوله:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

يعني: أولاد هذه الأنعام إذا ولدت حية: فهي حلال للرجال يأكلون منها، حرام على النساء لا يأكلن منها، وأما إذا ولدت ميتة: فيشترك فيها الذكور والإناث.

﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾ ربنا على وصفهم هذا الكذب من التحليل والتحريم على الله جزاء سيئاً ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ في عقابهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بعقيدتهم الفاسدة.

وبعد، فهذه هي النتيجة لما فعلوا:

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٤٠)

يعني: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ مخافة الفقر، بمنع النسل، ووأدوا بناتهم، مخافة العار، وخسارتهم في الدنيا: بنقص عددهم وزوال ما أنعم الله عليهم، وفي الآخرة: بالعذاب الأليم، وقد فعلوا ذلك ﴿سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: لخفة عقولهم، وتفاهة تفكيرهم، ومن غير دليل عندهم يحتجّون به أن الرزق بيدهم، سوى جهلهم بأن

الرازق هو الله تعالى، وكذلك: خسروا في الدنيا والآخرة، لتحريمهم ما رزقهم الله من النعم، وادعائهم زورًا أن هذا التحريم من الله.

هؤلاء الكفار ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ وتاهوا عن الصواب والطريق المستقيم ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إليه مرة أخرى، بعد أن ضلُّوا عنه.

وبعد ذلك: يبين الله عز وجل أنه الخالق لكل شيء، من الزروع، والثمار، والأنعام، فيقول عز شأنه:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (١٤١)

يعني: ﴿وَهُوَ﴾ الله ﴿الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾ خلق البساتين المنوعة فيها النباتات المعروشات، المبسوطات على وجه الأرض، أو المرفوعات على عريش، وفيها ﴿غَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ أي: ما قام على ساق كالأشجار، وهو أيضًا: الذي خلق ﴿النَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ﴾ في اللون، والطعم، والرائحة، وغير ذلك، وهو كذلك: الذي خلق ﴿الزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا﴾ شجرًا وورقًا ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ ثمرًا، ولونًا، وطعمًا.

﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ أي: يباح لكم أن تأكلوا من ثمار هذه الأنواع المذكورة، ولكن عليكم أن تُعطوا زكاة هذه النعم، حيث يقول تعالى: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ وسواء كان هذا الحق زكاة أو صدقة، فهو واجب الأداء يوم الحصاد، ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ في الأكل، حتى لا تُصابوا بالضرر، ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ كذلك في التصدُّق، حتى لا تُضيّعوا حق الأولاد.

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين الحد في البخل، أو في العطاء.

ثم يقول ربنا لإبطال ما يقول به الكافرون على الله في شأن الأنعام من التحليل والتحريم:

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاءُ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٤٢)

يعني: وخلقنا لكم ﴿مِنَ الْأَنْعَامِ﴾ التي هي الإبل والبقر والغنم ﴿حَمُولَةٌ﴾ تحملكم وتركبون عليها ﴿وَفَرَشَاءُ﴾ تأكلون وتحلبون منها.

﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من هذه الأنعام، ومن الزروع، والثمار المذكورة في الآية السابقة، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: طرقه في التحليل والتحريم.

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ شديد العداوة ﴿مُبِينٌ﴾ واضحها؛ حيث لا تخفى عداوته. لذلك: فاحذروه، وابتعدوا عنه، ولا تطيعوه.

وليكن معلوماً أن هذه الحمولة والفرش من الأنعام:

﴿ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَّذَكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٤٣)

يعني: خلقنا لكم حمولة وفرشاً من الأنعام ﴿ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ﴾، ﴿مِنَ الضَّأْنِ﴾ خلقنا ﴿اثْنَيْنِ﴾ وكذلك ﴿مِنَ الْمَعْزِ﴾ خلقنا ﴿اثْنَيْنِ﴾ أي: من كل منهما زوجين اثنين، أي: واحد ومعه زوج له من جنسه.

ولأنهم - أي: الكفار - كانوا يحرمون ذكور هذه الأنعام تارة وإناثها تارة أخرى، وأولادهما تارة ثالثة، وينسبون هذا التحريم لله تعالى: فقد أنكر الله عليهم ذلك وكذبهم بهذا الاستفهام الإنكاري: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار موبخاً ﴿آلَّذَكَرَيْنِ حَرَّمَ رَبَّنَا﴾، ﴿أَمِ﴾ ﴿حَرَّمَ الْأُنثَيَيْنِ﴾، ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أم حرم ما تحمل إناث هذه الأنعام في بطونها؟ قل لهم: ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾ أخبروني كيف عرفتم أن الله حرم ذلك، إن كان عندكم علم بهذا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تدعون من التحريم والتحليل المنسوب لله تعالى منكم، وطبعاً ليس عندهم أي علم بهذا. كذلك:

﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَّذَكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْإِنثَيْنِ أَمْ أَسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإِنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَلَكُمُ اللَّهُ بِهِذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤٤)

والمعنى: وبقية الأزواج الثمانية التي خلقناها لكم من الأنعام ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ أي: زوجين من كل منهما.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿آلَّذَكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ منهما، ﴿أَمْ﴾ حرم ﴿الْإِنثَيْنِ﴾ أم حرم ما تحمل إنائهما..؟ ولما ثبت أنه لا علم حقيقي عندهم بهذا التحريم في الآية السابقة: أثبت سبحانه أنهم لم يشاهدوا هذا التحريم أيضًا.

حيث يقول متحديًا لهم متهمًا بهم ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ أي: حاضرين هذا التحريم وهو يوحى به إلى رسول من الله، علماً بأنكم لا تؤمنون بالرسول؟ ولأنه لا علم عندكم من وحي، ولا مشاهدة منكم لوحي، فأنتم كاذبون، ظالمون، بل أظلم الظالمين.

حقًا: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لا أظلم من هذا، ولذلك يستحقون ما يقول عنهم ربهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. ويا محمد:

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤٥)

يعني: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار، الذين يحرمون ويحللون من عند أنفسهم وبأهوائهم ﴿لَا أَجِدُ﴾ في هذه السورة ولا في القرآن، ساعة نزول هذه الآية ﴿فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ من الله تعالى، الذي بيده التحليل والتحريم، شيئًا ﴿مُحَرَّمًا﴾ مما ذكرتم، قد حُرِّمَ ﴿عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ أي: يأكله ﴿إِلَّا﴾ هذه الأشياء الأربعة:

﴿أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ فهذا أكله حرام، ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ أي: سائلًا، منزوعًا من

الحيوان، فهذا حرام، وأما الكبد والطحال، وبقايا الدم في اللحم والعروق فهي حلال، ﴿أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾ وكل شيء منه فهو حرام، وذكر اللحم فقط أهم شيء يراد منه، وتحريمه كان؛ لأنه ﴿رِجْسٌ﴾ أي: نجس حرام، ﴿أَوْ فِسْقًا أَهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ يعني: ما ذبح وذكّر عليه غير اسم الله؛ لأن ذلك فسق وخروج عن طاعة الله.

ومع ذلك، وتيسيرًا من المولى على عباده، فإن هذه المحرمات المذكورات: يباح الأكل منها، وفق قوله تعالى ﴿فَمَنْ أَضْطُرَّ﴾ أي: دعت الضرورة الشديدة إلى أكل شيء منها، فله أن يأكل مراعيًا أمرين: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على مضطر مثله، فيظلمه ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: أكل أكثر من حاجته التي تنتهي بها ضرورته.

فمن اضطر لذلك وأكل من هذه المحرمات: فلا يؤاخذ على ذلك، حيث إن ﴿رَبِّكَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾ لا يؤاخذ المضطر، بل يرحمه بهذا التشريع.

وفي مجال التحليل والتحريم في الأنعام، وبعد أن بين لنا ربنا عز وجل موقف الكفار المشركين من العرب، من قضية التحليل والتحريم في الأنعام، والردّ عليهم، يرد الله - تبارك وتعالى - أيضًا على اليهود، الذين حرّفوا دينهم، وغيروا تعاليمهم، وحلّلوا وحرّموا بأهوائهم، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِغَيْرِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ (١٤٦)

يعني: حرّم الله على اليهود خاصة، دون ما عداهم من الأولين والآخرين، هذه الأشياء: ﴿كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ أي: كل ما له إصبع من دابة أو طائر، فهو حرام عليهم لحمه وشحمه، وكل شيء فيه، وكذلك: شحوم البقر والغنم حرام عليهم، ولكن يستثنى من هذه الشحوم المحرمة: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ من الشحوم فهو حلال، ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ وهي الأمعاء فهي حلال، ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ من الشحوم فهو حلال.

وبهذا يكون الذي حرّم عليهم من الشحوم: شحم الكرش والكلّى، وما عدا ذلك فهو حلال، وهذا الذي حرّم الله عليهم في الآية: هو من باب التضييق عليهم، يقول ربنا: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: هذا التحريم ﴿جَزَيْنَاهُمْ﴾ به عقابًا لهم، وما ذلك إلا ﴿بِغَيْرِهِمْ﴾

وظلمهم، حيث كانوا كلما ارتكبوا معصية من معاصيهم الكثيرة: عوقبوا بتحريم شيء مما أحلَّ الله لهم، وهم ينكرون ذلك، ويدَّعون أنَّها حَرَّمٌ على الأمم قبلهم، فكذبهم الله تعالى فيما زعموا. ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما كذبناهم فيه، وأخبرنا به عنهم.

ثم يرشد المولى تبارك وتعالى حبيبه إلى التصرف الصحيح مع هؤلاء اليهود، بقوله:

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٤٧)

يعني: ﴿فَإِنْ﴾ كذبك يا محمد هؤلاء اليهود الذين يعاصرونك، والذين تدعوهم إلى الإيمان فيما جئت به وأوحى إليك من الإسلام، ومن جملته التحليل والتحريم الذي ذكرناه عنهم في الآيات السابقة، إن كذبوك: ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿رَبُّكُمْ ذُو﴾ صاحب ﴿رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ حيث لم يعاقبكم فور تكذيبكم، وحتى لا يغتروا بهذه الرحمة التي هي إهمال لهم لا إهمال لعذابهم، قال: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾ أي: عقابه إذا جاء ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين يكذبون رسل الله، وهكذا بيَّن الله تعالى كذب كل من زعم شيئاً من التحليل والتحريم.

وبهذا البيان لزمهم جميعاً من مشركين ويهود الحجة، وقام عليهم الدليل.

ولمَّا ظهر فساد كلامهم، وبطلان موقفهم من التحليل والتحريم، أخبر الله عنهم بما سيقولونه عناداً، حيث قال عز وجل:

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (١٤٨)

وهكذا لمَّا سقطت أدلتهم: تعلَّلوا بمشيئة الله!! والمعنى: ﴿سَيَقُولُ﴾ لك ﴿الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إظهاراً وتأكيذاً أنهم على الحق، وليس اعتذاراً عن ارتكابهم هذه المعاصي ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ عدم إشراكنا به، وعدم تحريمنا لما حرَّمنا ﴿مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا﴾ كذلك ﴿وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ ولذلك: فهو راضٍ عنا، وعن إشراكنا، وعن تحريمنا وتحليلنا، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل هذا التكذيب ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ رسلهم، وتعلّلوا - كذباً - بمشيئة الله، فلم ينفعهم ذلك ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَاسًا﴾ أنزلنا عليهم العذاب.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ما يلي:

أولاً: ﴿هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أي: هل عندكم علم صحيح من وحي أو خبر صادق بما تدعونه، فتظهموه لنا؟ ولن يجيبوا؛ لأنه ليس عندهم ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ الوهم والخيال والاعتقاد الفاسد، ﴿وَيَٰنَ أَنْتُمْ إِلَّا خُرُوسٌ﴾ أي: يكذبون على الله فيما يدعون.

ثانياً: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٤٩)

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ﴾ عليكم، وهي الدليل القاطع الواضح من إنزال الكتب، وإرسال الرسل إليكم، وليس لكم أية حجة، ولا أدنى دليل على الله، ﴿فَلَوْ شَاءَ﴾ الله هدايتكم ﴿لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولكنه علم رغبتكم في الضلال، ولذلك لم يشأ هدايتكم.

ثالثاً: ﴿قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعِدُّونَ﴾ (١٥٠)

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ﴾ هاتوا شهداءكم الذين يشهدون معكم فيما زعمتم ﴿أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ الذي حرّمتم، ﴿فَإِنْ﴾ جاءوا بشهداء، و ﴿شَهِدُوا﴾: فإنهم شهدوا زور، ﴿فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ أي: فلا تصدقهم وتسلم لهم، فتكون كمن شهد معهم زوراً.

هؤلاء يا محمد قد اتبعوا أهواءهم، لذلك: ﴿لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ﴾ هؤلاء ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ واتبعوا أهواءهم ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ والذين هم بِرَبِّهِمْ يَعِدُّونَ ﴿أي: يسوون به خلقه.

رابعاً: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي

حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَصَنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَمْ وَصَنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

في هاتين الآيتين عشرة أحكام: خمسة بصيغة الأمر، وخمسة بصيغة النهي، وهذه الأحكام العشرة التي فيها: لا تختلف باختلاف الأمم.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: هنَّ محكمات، لم ينسخهنَّ شيء في جميع الكتب، وهنَّ محرمات على بني آدم كلهم، من عمل بهنَّ: دخل الجنة، ومن تركهنَّ: دخل النار.

ومعنى الآيتين: يا مَنْ تحرّمون وتحلّلون، وتنسبون ذلك زورًا وكذبًا لله تعالى: تعالوا أقرأ ما حرّم ربكم عليكم حقًا ويقينًا، ولا شك فيه، ولا ظنًا، ولا كذبًا، كما تزعمون أنتم، بل هو وحي من الله تعالى.

ويلاحظ ابتداء: أن الأوامر المذكورة فيما يلي مؤولة إلى نوا، فيصير المحرّم هو عكسها، ويتضح ذلك أكثر فيما يلي من البيان والتوضيح، وهذه الأحكام العشرة بيانها كالآتي:

الأول: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ يعني محرّم عليكم: الشرك بالله.

الثاني: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ يعني محرّم عليكم: ترك الإحسان إلى الوالدين، ومن باب أولى عقود الوالدين.

الثالث: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقَ﴾ الآية.. يعني.. محرّم عليكم: قتل الأولاد - بأية وسيلة - بسبب الفقر، أو خوف الفقر ﴿وَتَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ حيث إنَّ رزق الخلق على خالقهم، وليس على بعضهم البعض.

الرابع: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ الآثام والمعاصي كلها ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ واطّلع عليه الناس، أو كان بينك وبينهم ﴿وَمَا بَطَّنَ﴾ ولم يطلع عليه إلا الله، أو كان بينك وبين الله، يعني: محرّم عليكم ارتكاب الفواحش كلها.

الخامس: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كالقصاص، وحد الردّة،

ورجم الزاني المحصن، الذي يقوم به ولي الأمر، يعني: محرّم عليكم قتل النفس بغير الحق.

وفي نهاية هذه المحرمات الخمسة الظاهرة الواضحة، يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: ذلكم المذكور مما تُليّ عليكم ﴿وَصَنُّكُمْ﴾

به، أي: أمركم به ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فوائد هذه التكاليف في الدنيا والآخرة. السادس: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: إلا بالصفة الحسنة، والتصرف النافع، ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ فسلموه له، وادفعوه إليه، ليتصرف فيه بنفسه، يعني: محرّم عليكم أكل مال اليتيم.

السابع والثامن: ﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل، والمعنى: محرّم عليكم إنقاص الكيل، ومحرّم عليكم أيضًا: إنقاص الميزان ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: الوصول إلى العدل في ذلك قدر الطاقة.

التاسع: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا﴾ أي: فاضدقوا، حتى ﴿وَلَوْ كَانَتِ﴾ المقول له أو عليه، في شهادة أو غيرها ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: من الأقارب.

يعني: ومحرّم عليكم الكذب وشهادة الزور.

العاشر: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ أي: التزموا بما عاهدتم عليه ربكم، أو أيّ أحدٍ من خلقه، يعني: ومحرّم عليكم نقض العهد.

وفي النهاية يقول ربنا: ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: ما مرّ جميعه، وذكر تفصيله أمركم به ربكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تتعظون، وتتفعلون به في دنياكم وأخراكم. وقل لهم أيضًا يا محمد:

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾
﴿ذَلِكُمْ وَصَنُّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٥٣)

والمعنى: ﴿أَنَّ هَذَا﴾ الذي سبق ذكره في السورة من إثبات: التوحيد، والنبوة، وبيان الشريعة، أو ﴿أَنَّ هَذَا﴾ الذي سبق ذكره في الآيتين السابقتين من الأوامر والنواهي، هو ﴿صِرَاطٌ﴾ أي: ديني ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ لا اعوجاج فيه ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ والتزموا به ﴿وَلَا

تَنبِئُوا السَّبِيلَ ﴿١٥٤﴾ أي: الطرق المختلفة عنه من اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، وسائر البدع والضلالات ﴿فَنَفَرَقَ بِكُمْ﴾ أي: ففترقكم ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الذي هو الصراط المستقيم، وهو الإسلام.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الأمر باتباع دينه، وترك غيره من الأديان ﴿وَصَنَّكُم بِهِ﴾ أي: أمركم به ربكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ النار باتباعكم دينه وترك الأديان الباطلة.

يلاحظ: أنه قال أولاً: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ثم ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ثم ﴿تَتَّقُونَ﴾ لأنهم إذا عقلوا، تفكروا وتذكروا فاتَّعظوا واتَّقوا المحارم. ثم أخبرهم يا محمد - كذلك - عنا، بقولنا:

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٤)

ومعنى الآية: ﴿ثُمَّ﴾ أخبركم بعد أن بيَّنت لكم ما حرَّم عليكم، أنا ﴿آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ قبل ذلك، ﴿تَمَامًا﴾ لنعمتنا عليكم ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ العمل بأحكامه، ﴿وَتَفْصِيلًا﴾ مبينًا ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاجون إليه من أمور الدين والدنيا، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ من ربكم، ﴿لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لعل بني إسرائيل يصدقون بالبعث والحساب، وهذا ثناء على التوراة، والرسول الذي أنزلت عليه.

ثم أثنى ربنا عز وجل على القرآن، فقال جل وعلا:

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٥٥)

والمعنى: ﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ على محمد ﷺ ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير المنافع دينًا ودنيا، ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ واعمِلُوا بما فيه، ﴿وَاتَّقُوا﴾ الله، بعدم مخالفة ما فيه من أحكام، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بسبب اتباع ما فيه، وتقواكم الله.

وكان ذلك بالنسبة للقرآن؛ لينقطع عذر المشركين العرب في عدم الإيمان.

ثم خاطب الله مشركي العرب قائلاً:

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ﴾ ﴿١٥٦﴾

يعني: أنزلنا القرآن كتاباً مباركاً بلسان عربي، على رسول منكم، حتى لا ﴿تَقُولُوا﴾ معللين لعدم إيمانكم ﴿إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ وهما اليهود أهل التوراة، والنصارى أهل الإنجيل، ثم تقولوا: ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ﴾ ولكننا كنا عن تلاوة ودراسة هذه الكتب، التي نزلت عليهما ﴿لَغَفْلِينَ﴾ لعدم معرفتنا بما فيها، إذ هي ليست بلغتنا، ولذلك: لم نعرف الوحي ولا الرسالات، وبالتالي فلم نؤمن لذلك. ثم قال لهم أيضاً:

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ ﴿١٥٧﴾

والمعنى: أنزلنا القرآن كتاباً مباركاً بلسان عربي، على رسول منكم، حتى لا ﴿تَقُولُوا﴾ أيضاً معللين لعدم إيمانكم ﴿لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ إلى الحق الذي جاء به، لغزارة حفظنا، وذكاء عقولنا، وسرعة استجابتنا.

﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ الآن، ونزل على رسول منكم الكتاب ﴿بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ لكم، فإن كنتم صادقين فآمنوا، فماذا فعلتم؟ لقد كذبتكم بهذا الكتاب، الذي هو أعظم آية من الله، وأعرضتم عنه، إذا ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ﴾ أي: أعرض ﴿عَنْهَا﴾؟ لا أحد أظلم من ذلك، ولذلك بهددهم ربنا عز وجل قائلاً: ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وهو النهاية في التكيل بهم ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ أي: بسبب إعراضهم.

إن أمر هؤلاء الكفار عجيب!! ماذا ينتظر هؤلاء حتى يؤمنوا؟

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ نُنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ ﴿١٥٨﴾

والمعنى: لقد أقمنا الدلائل على وحدانية الله، وثبوت الرسالة، وأبطلنا ضلالاتهم، ولم يؤمنوا، فماذا ينتظرون إلا: ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أي: أمره، يعني: أمر ربك بعذابهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ أي: علاماته الدالة على يوم القيامة، كطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة التي تكلم الناس.. إلخ.

على كل حال: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ هذه ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا﴾ كافرة ﴿إِيمَانًا﴾ في هذه اللحظة؛ لأنها ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ كما لا ينفع نفساً مؤمنة عاصية توبتها من المعاصي لم تكن ﴿كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ يعني: طاعة، قبل ذلك.

يا محمد ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَنْتَظِرُوا﴾ واحدة من هذه الأشياء الثلاثة ﴿إِنَّا﴾ في ذات الوقت ﴿مُنْتَظِرُونَ﴾ لكم ذلك.

ثم يهدد ربنا عز وجل من فارق دين الله وخالفه بقوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١٥٩)

والمعنى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ أي: اختلفوا فيه فصاروا فرقاً، كاليهود والنصارى، أو: نوّعوه.. كل فرقة عبدت شيئاً، هؤلاء عبدوا الأصنام، وهؤلاء عبدوا الملائكة، وذلك كالمشركين عامة.

أو: اختلفوا فيه، وفَرَّقُوهُ، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، كأهل الضلالات والبدع من هذه الأمة، أو: فارقوا دينهم يعني تركوه، ﴿وَكَانُوا شِيعًا﴾ أي: فرقاً متنازعة، ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي: أنت منهم ومن تفرقتهم بريء، فلا عليك منهم، ولا من تفرقتهم شيء، فلا تتعرض لهم، هذا منسوخ بآية السيف.

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ﴾ في الآخرة ﴿يُنَبِّئُهُم﴾ ويجازيهم بنوع ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

ثم بين ربنا - تبارك وتعالى - مقدار جزاء العاملين، فقال جلّت حكمته:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿١٦١﴾

يعني: جزاء الحسنة: عشر أمثالها، وجزاء السيئة: مثلها فقط.

﴿وَهُمْ﴾ أي: العاملون لهذه وتلك ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص من الحسنات، ولا بزيادة للسيئات.

وكان هذا البيان؛ ليعرف العباد فضل الله تعالى وعدله؛ فُقبلوا على الحسنات، وابتعدوا عن السيئات.

وبعد ذلك: يأمر ربنا حبيبہ ﷺ أن يخبر بما أنعم الله عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم، فيقول له:

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٦٢﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين فرّقوا دينهم وفارقوه؛ مبيّنًا لهم ما أنت عليه من الدين الحق: ﴿إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام، الدين القويم، الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ﴿دِينًا قِيمًا﴾ قائمًا ثابتًا، لم يُحرّف، ولم يُغيّر، ولم يُبدل، ﴿مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: وهو الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام، مائلًا به عن الشرك، ومبتعدًا به عن الأصنام، التي أنتم عليها.

﴿وَمَا كَانَ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بالله تعالى أبدًا.

ثم يأمره سبحانه كذلك أن يعلن لهؤلاء المشركين: إخلاصه لله، إذ يقول له:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦٣﴾ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿١٦٤﴾

والمعنى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للدنيا كلها معلنا قمة الإخلاص: ﴿إِنَّ صَلَاتِي﴾ أي: عباداتي كلها ﴿وَنُسُكِي﴾ من حج وذبح، ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ وما أتيت به في حياتي واعتقدته، وأموت عليه، من الإيمان بالله، وتوحيده، والإيمان برسله، واتباعهم، والعمل الصالح، كل ذلك، خالص ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وحده ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ في ذلك، ولا في شيء منه.

﴿وَبِذَلِكَ﴾ التوحيد والإخلاص ﴿أُمِرْتُ﴾، ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ مسارعة في امتثال ما أمرت به.

لَمَّا قَالَ الْكَفَّارُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ارجع إلى ديننا.. قال له ربه:

﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾
والمعنى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك ﴿أَغَيَّرَ اللَّهُ﴾ الذي أعبدته، وأوحده، وأخلص له، ﴿أَبْنَى رَبًّا﴾ أطلب ربًّا آخر لي غير الله تعالى، وهو ربي وربكم ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ومالكة، وخالقه، ومريبه.

ولمَّا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ لِلْمُسْلِمِينَ: ﴿أَتَتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلَنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢].

بمعنى: ليكتب علينا لا عليكم من الخطايا، أو بمعنى: لنحمل يوم القيامة ما كتب عليكم من الخطايا، ردَّ الله عليهم ما قالوا بقوله، قل لهم: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ أي: كل نفس عليها إثم ما كسبت لا على غيرها.

وكذلك ﴿وَلَا نُزِرُ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ﴾ لا تحمل نفس عن نفس سيئاتها.

وقل لهم كذلك: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ وربِّي ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة، ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ من الأديان التي فرقتموها، أو فارقتموها، أو افترقتم فيها.

ثم تختم السورة بتقرير أن الله تعالى جعلنا خلائف الأرض؛ ابتلاء، فقال عز وجل:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾

والمعنى: واعلموا جميعاً أن الله الواحد الأحد، سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي﴾ لا غيره، من الأنبياء والشركاء الذين تزعمون، ﴿جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ خلائف: جمع خليفة، يعني: يخلف بعضكم بعضاً فيها تملكونها، وتتصرفون فيها، وهو وحده الذي ﴿رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ في الرزق، والعقل، والشرف، إلى غير ذلك، وكان ذلك الاستخلاف، والرفع ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ أي: يختبركم فيما أعطاكم من النعم، كنعمة المال، ونعمة الولد، ونعمة الصحة، ونعمة الجاه والمنصب.

ويختبركم كيف تشكرون، وكيف تتصرفون، وكيف يصنع القوي بالضعيف، والغني بالفقير، والكبير بالصغير، والحاكم بالمحكوم، إلى غير ذلك، فيكون الثواب والعقاب.

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن كفر، ولمن عصاه ولم يتب.
﴿وإنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن آمن وعمل صالحًا، وقام بشكر هذه النعم.
